مقال في الوضع الآني

معاذ محمد بني عامر



رقم الايداع لدى دائرة المكبة الوطنية ٢٠٠٢/٨/٢١٥٩

153.4

مقال في الوضع الآني

معاذ محمد بني عامر – عمان : المؤلف ٢٠٠٢

ر. إ : ٢٠٠٢/٨/٢١٥٩

رقم الاجازة لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠٢/٨/٢٠٤٩

الواصفات: / الفلسفة / الإيديولوجيات / التفكير / علم النفس

تم اعداد الفهرسة والتصنيف الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

مطبعة بلال ـ اربد ٧٢٤٨٢٤٩

الإهـــداء

في أوقات الذروة، تتأزم الفكرة، وتصاب بحالة هذيان، تدعوها الى الانفلات من الجاذبية الجمجمية.

الى الفكرة التي ثقبت سور الجمجمة، وأحدثت خرقاً معمارياً في الذاكرة.

الى؟ أو ؟

مقال في الوضع الآني

المقدمة

لم يكن "الوضع الآني" هو شغلي الشاغل، كما الأمر بالنسبة "للوضع التالي"، لكنه لا بد من "الآني" كمادة دسمة "للتالي" تغذي العقل وتزوده بالسعرات الحرارية الفكرية التي تشد ظهره، وتمتن عزيمته، وتمنعه من الاندفاع نحو اللاشيء. هذا بعد أن يصاب "بالشيزوفيرينيا" (الانفصام).

اذن لا بد من "الآني" كمرحلة ممهدة – غير مجزأة – للتعامل لاحقاً مع "التالي" خشية على أنفسنا من الخضوع لهيمنة اللاشيء الفاقد لذاته. ومنعاً من تخبطنا الذي يؤدي الى الانتحار الوجودي "الآني" والذي بالضرورة يؤدي الى انزلاق خطير مع إتيان "التالي".

وحتى ان لم يكن "الآني" في مرحلة ما شغلي الشاغل، إلا انه الآن – ضمن معطيات الآني – يمثل قاعدة صلدة لها تاريخ عتيد، استند عليه في بناء ادراكات واحساسات ووضع تصورات، وبناء لبنات فكرية "للوضع التالي".

نقيضاً لهذا كان من الممكن ان يبنى "الوضع التالي" بمساعدة قوة عفريتية – بين ليلة وضحاها، لو تمتعنا او بالاحرى لو كان لدينا (عتاد سرمدي) نجاري فيه القوة الازلية، فنصنع المعجزات، ونفهم كنه المجهول، ونخترق الزمان، ونلغي المكان، لكننا ونتيجة لضعف كينونتنا الانطولوجية منعنا من امتلاك او حمل (السلاح السرمدي) خشيةان نستعمله في غير موضعه، وخشية ان ينقلب ضدنا ساعة العجز عن التعامل مع تقنياته اللامتناهية.

لكنها الحكمة الإلهية السرمدية، عرفت بضعفنا منذ الازل فحرمت علينا "الوضوح الكامل" أو "الاندماج الكلي" المتمفصل عن العتاد السرمدي الرهيب، ولهذا حكم علينا ان نعيش "الوضع الآني" بكل تفاصيله وفصلاته وانعطافاته، من

آدم – عليه السلام –الى ساعة اعلان – من قبل القوة الإلهية – زحزحة اشكالية (الزمكان).

حكم علينا بالتقوقع في معاقل "الوضع الآني" خشية ان تنتحر عقولنا، ونجلس بالتالي او بالأحرى نحظى بحياة متناهية ليس فيها معايشة "للوضع التالي".

لم يكن لدينا (عتاد سرمدي)، ولهذا نحن ضعيفون انطولوجياً و لا بد لنا من ان نعيش "الآني"، لنروض – بالمعنى العقلاني للكلمة – عقولنا، او بالأحرى لنؤهلها لتكون جاهزة للمثول امام سرمديات "الوضع التالي".

بلغة اخرى، اقتضت الحكمة الإلهية السرمدية، أن نعلن الفارق بيننا وبينها، عن طريق معايشة "الوضع الآني"،ومكابدة آلامه، وتحمل عثراته، لننتقل بالتالى من خشونة " الوضع الآني" إلى رقي " الوضع التالي" إذا اردنا اسقاط التعبير الخلدوني – نسبة الى ابن خلدون – على ما نتحدث عنه ههنا، مع بعض التحفظات الجوهرية.

وبناء على ما تعاقدنا على الاعتقاد به، ألزمتنا الضرورة الانطولوجية أن نتحدث عن "الوضع الآني".

هذا ولم يأت مقال "الوضع الآني" بمعناه الميكانيكي، بل جاء بالمعنى المجازي، لأننا لو تحدثنا عن "الوضع الآني" بالمعنى الميكانيكي ، فسيكون كل ما كتب في هذا الكتاب مجرد شعرة سوداء على جسم ثور ابيض، او العكس. من منطلق امتداد "الوضع الآني" من آدم – عليه السلام – الى آخر الزمان " الآني". وبهذا نكون بحاجة إلى أن نعيش عيشة أبدية لنتحدث عن " الوضع الآني" بكل معطياته

لكننا تحـــدثنا بـــلغة مجازية عن "الوضع الآني" أو بالأحـــرى عن مفصليات "الوضع الآني". لهذا جاءت المقالات التي تشكل المقال، وتنســـج خيوطه، كتمهيد "للوضع التالي". هذا إذا أخضعنا مقـــــال "الوضع الآني" لهيمنة "الوضع التالي" المتمركز في عقل الأنا، فمقال التأمل بشقيه: النفسي (الســـيكلوجي) والاجتماعي (السوسيولوجي) بالقطع يعلن انتمائه الى تأمل "الوضع الآني" مدار البحـــث الذي نحوم في فلكه. والذي يشكل – بكل اجزائه – تمهيد "للوضع التالي" حيث تأملاتنا المستقبلية.

نأمل بعد هذا الايجاز، ان يكون ما نقدمه بين يدي (الآخر) فيه احترام لعقـــله، وتقديس لنفسه. هذا بعد النظر اليه من منظور إنساني مثقوب، يتساوى فيه (الأنا) والآخر) من منطلق انجذاب (الأنا) و(الآخر) نحو جاذبية واحـــدة، هي الجاذبــــية الإنسانية، بغض النظر عن المنظور الذي سينظر فيه (الآخر) لما قـــدمه (الأنا). ســـواء كانت نظرة وحـــدوية او انفصالية او عقـــلانية او دينية، او أياً كانت هذه النظرة.

ونأمل – مرة أخرى – أن يكون فيما تقـــدم بـــذره خير تنفع بـــني البشـــر في مسيرتهم الحياتية نحو اللامتناهى.

الفصل الاول

تأملات في الحياة من منظور سيكولوجي (نفسي)

"تقضي الحياة بطولها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، في عملية توافق وتلاؤم بين المتقلب وغير المتقلب من أنفسنا، والدائم وغير الدائم من بيئتنا، فإذا خاب مسعانا بعض الخيبة كنا بلداء، وإذا فحش الإخفاق أحدثنا مس من الجنون، وإذا توقفنا عن السعي بعض الوقت غلبنا السبات، وإذا ألفينا عتادنا وأقلعنا عن الجهاد بالمرة قضينا نحبنا".

صموئيل بتلر

التأمل رقم "١"

إشكالية التعايش

الجزء رقم (١)

الحياة – ليس جوهرها – بل رموزها الميكانيكية، المتمثلة بحيواناتها الناطقة الساذجة، تمارس ضدي حملة ألم شعواء لأسباب جد غير منطقية، لقد كانت هذه الحملة الشعواء "ردة فعل" لأفعال أو بالأحرى لأفكار توالدت من جمجمتي، لم تكن صاحبة حق مشروع، ولم تكن "ردة الفعل" هذه تحصيل حاصل. بل كانت بمثابة اقتحام تعسفي ارتكز على "اللامنطق اللامنطقي".

كنت طيلة فترة هذه الحملة التعسفية – والتي ما زالت تتوالد – أمارس حقي في المقاومة الميكانيكية، والتي كانت تستمد قوتها وجبروتها من جوهر الميكانيكا.

وههنا مكمن الخطور بين (الماضي) وبين (الماضي) –اي الآن– كان وكان تشرذماً من النوع المنفلت من عقاله الذي لا يمكن تشبيهه إلا بقمر صناعي او صرصار يتحرر شيئاً فشيئاً من عبودية الجاذبية الأرضية.

ربما يفهم من كلامي حقية هذا الحملة التي مورست ضدي كونها "ردة فعل" و "ردة الفعل" غالباً ما تأتي لتصحيح الاعوجاج حسبما تعورف على ذلك. لا ليس هذا هو الكائن، انما ما ينبغي أن يكون هو "اللاتسليم" بمسلمة "ردة الفعل" هذه، لكي لا يكون هناك تحكيم لمنطق التفكير الأعوج.

وبعد فإن الحياة اللارمزية بساذجيها، حياة متناهة التعاسة، خاصة عندما تفتقد الى رمز او بالأحرى عندما تفتقد الى رموز متمردة، نكون في موضع حرج ملغم لا يحتمل الا وجود هذه الرموز، لكن وللأسف البالغ السذاجة – المكرر

مرتين – ما زالت هذه الرموز تعاني من "اللارمز".

السؤال المنطقي المفروض للبعض ان يسأله او يتبادر على الأقل الى ذهنه، ما هذا "اللاتجانس".؟

سؤال عميق ينم عن تفسير، تماما كالسؤال المقابل له.

ما هذا التجانس؟

السؤالان وجهان لمنطق واحد، لكن من الصعب ان نضع الاجابة بين قوسين مقفلين، لأن هذا التجانس "واللاتجانس" يحدث في جو عاصف لكنه محجم عن الامطار، تماما كجلسة "عصف ذهني" لا يتمخض عنها تفكير سليم، او بالاحرى لا يتوالد شيء سليم يمكن ان نسميه تفكير.

عراك فكري مجرثم قائم على التشرذم، او بلغة اكثر دقة، مهاترة فكرية بين المنطق واللامنطق، أساسها "الهو" و"الأنا" الذي عجز في مجموعه – أي الـ "نحن" – عن الوقوف في وجه هذا الشرك الممتد كلعنة الاساطير. عجز "الهو" و "الأنا" عن ايقاف هذا الشرك كان تحصيل حاصل، نتيجة الاستناد الى أسس لا تمت إلا إلى "اللاشيء" الفاقد لذاته. وبالتالي سيكون من الطبيعي ان يتقدم "الأنا" ويتخلف "الهو" ويتشرذم الـ "نحن" مع أن من طبيعتنا عدم تحبيذ هذا التخلخل الذي "قادنا" "يقودنا" "سيقودنا" – أي الآن – نحو البؤس المعلب بالقهر. وهذا البؤس جعل من الطبيعي ان لا تنظر الينا الحياة بعين العطف، وان نخوض مهاترات دامية من اجل الحياة، لكن من "اللاطبيعي" ان لا تنظر الينا الحياة بعين العطف.

عكس معكوس، في طرحنا سالف الذكر، كان قد نشا بـــادئ بـــدء من تعدي "الآخر" على موروثات "الأنا" ونتيجة لهذا التعدي كان لا بد للساذجين المهرطقين، من ان يمارسوا حقهم "اللامشروع" المتجسد بـــعاصفة غبـــائية هذائية. مركزها جماجم رديئة، هدفها "النخبة اللانخبة"قبل "الدهماء المدلهمة"، هدفها القـــتل وليس التخدير. فكان هذا الطبيعي واللاطبـــيعي، العكس المعكوس، قـــد وضعنا كفصلة غير مرغوب فيها بين "الحق" و"الباطل" بين "الالحاد" و"الايمان".

ولكن وانطلاقـــاً من طبـــائعنا التي تدعو الى التمرد ضد الضد، فكائنة ما تكون شراسة هذا الضد، جدير بنا ان نقف ببربريتنا – بالمعنى المتحضر للكلمة – شامخين في وجه الريح الحارة، منطلقين من عقلنا اللاشـــعوري، مســـتندين على المنطق، متسلحـــين بـــضمير ذاتنا مدافعينعن ذاتنا، مقـــارعين بـــآرائنا دغمائية السذجاء الناطقين.

الجزء رقم (٢)

لأن الزمان الذي نعيش فيه ليس زمان الانكسارات الكبرى للعقل البشري، وليس زمان الوقوف باجلال امام عظائم الامور، بقدر ما هو زمان تتشطر فيه الاجساد الى جسيمات مزرية تتعرض لانتهاكات المارة، ولاغتصابات رواد المقاهي التي تقدم مشروبات تشرب بأحذية ملوثة بدم الحيض.

ولأن الزمان الذي نعيش فيه على هذه الشاكلة، أعني شاكلة بحيرات نيجيريا القذرة، يصير لزاماً علينا الانخراط بطوباويات الحضارة، وبدغمائيات المثقفين، وبصلافات الأعراف الاجتماعية النتنة.

هذا الانخراط يكون أو بالاحرى سيكون – يكون – نتيجة حتمية لأنخلاعك عما كنت عليه.وهكذا بقدر ما تنخلع بقدر ما تنخرط، وبقدر ما تنفلت من عقابيل العقل الرجعي بقدر ما تنتقل الى ميادين "اللاتقوقع" و "اللانحسار" في متون السطور والاوراق الملونة التى إن كنت لا تتقن التعامل معها فأنت مصاب "بعمى الألوان".هذا الزمان هو زمان تعملقت فيه اجساد الاقزام، هو زمن الخيانات العظمى التي تباركها الأيدي القذرة، وزمن شاخت فيه أوراق العقلانيين، وشبت قصاصات الدغمائيين.هذا هو حال الزمان الذي صنعه العقل المتناهي الذي ترعرع في اجواء ضبابية كثيفة مشحونة بارساليات تبشيرية. من غسيل للأدمغة وقصف للعقول وتقزيم منظم للأفكار. وايمان عميق "باللامعقول" الناقص عقلياً.

أمراض نفسانية وعقلانية تصيبنا، اذا لم ننخلع لكي ننخرط، تتجسد اكثر "ما تكون" "كانت" "ستكون"–أي الآن– فى دغمائتنا وبربريتنا وارهابيتنا.

أمراض ذهانية وعصابية – حسبما يدعون – تحدق بنا من كل حدب

وصوب، ما تلبث ان تفكك نسيجنا النفسي الضاربة جذوره في مدارات "الانغلاق" و "التقوقع" و"الادراكات المغلوطة" والتشظيات الفكرية المبعثرة".ليس نسيجاً طوباوياً نسيجنا النفسي، لكنه نسيج اصابه الضمور لكثرة ما مورست ضده الخلاعات الفكرية والفظاعات الكتابية التي صيغت على قصاصات من الورق الرديء المصنع في معبد اشباه الثقافات، ومسوخات العادات المغلوطة، والتي صاغتها شرذمات من الواقعين في "فخ شبه العلم" – بتعبير نبيل علي – والمنخدعين بالخطأ التاريخي الوارد في متون الايقونات.انعكاسات وانشطارات متناهية الخطورة تعرض لها النسيج النفسي السليم الرافض لكل الأيدي القذرة التي "امتدت" "ستمتد" –تمتد – نحو مقدراته الأصلية، ومعطياته الثقافية الرهيبة.وكنتيجة حتمية لهذه الضبابيات التي حجمت مدى الرؤية عجزنا عن الحب والعطاء. عجزت "أنا" عن تقمص "الهو" وعجز "الهو" عن تقمص "الأنا"، مما شكل ركوداً تكافلياً، تقزمت على اثره المعطيات البشرية الراقية "كالحق" و"الخير" و"الجمال"، وتعملقت معطيات المافيا البشرية–كالبهائمية واللاعقلانية.

ليس عارياً هذا التأمل يتلقى دورة انعاش جسدي في الجحيم، كما انه ليس غراباً يحوم فوق الفردوس المنتظر، بل جزء من العكس هو الصحيح. لأنه تأمل في النص ذو الحيز الواقعي، على عكس ما قد يتبادر الى الذهن من أنه تأمل في البعد التجريدي.لجلاء الأمور، تأملنا يتعامل مع نص حياتي مفكك فرضته العادات الاجتماعية والضغوطات الثقافية، ولا يتعامل مع نص تجريدي صاغته افلاطونية المفكرين او سارترية الوجوديين او نيتشوية الوثنيين.فبقدر ما يتعامل "عما هو عليه الحال" بقدر ما يبتعد"عما ينبغي ان يكون عليه الحال"، وبقدر ما أصابه من شطحان، بقدر ما يتماهى ليتقزم ويتحجم، لكي لا يكون للناس عليه حجة.

الجزء رقم "٣"

عاجزون عن الحب، وتائهون في صحارى الجسد، وذلك كنتائج تمفصلت عن مقدمات مغلوطة، كسوء الفهم للأهداف الكبرى لهذه الحياة، والادركات الشعورية المغلوطة.

فالإدركات الشعورية المغلوطة تتماهى في العقول، وتتسامى او بالأخرى اخذت بالتسامي، باختصار ستتسامى – اي الآن – فوق المعقول، لتوصم عقولنا بمعقولية اللامعقول، او بالأحرى – منعاً للخلط– بمشروعية اللامشروع.

مرة اخرى، عاجزون عن الحب، ليس لضعف المثالية في ماهية الحب او لضعف الحب عقلاً وروحاً، بل لعدم تمرسنا على الاضطلاع بعظائم الأمور، ولإشكاليات نسجلها على الأفكار التي "كدسناها" "تكدسها" "سنكدسها" – أي الآن – في عقولنا، فهذه الافكار – على وجه الجملة – وقفت موقف المتخاذل العاجز عن الإلمام بمعقولية المعقول، او مشروعية المشروع.

وهذا التخاذل سيطر على كيمياء المخ فسبب انفلاتاً حقيقياً لموازين الامور، فترك الحبل على الغرب، فاصبح بالتالي هذا الفلتان لا فلتاناً، يقيس الأمور ويقننها ويمنحها ميزات هي في الأصل ليست ميزات، بقدر ما هي انحرافات وتجاوزات.

فالمنفلتون المتمفصلون او بالأحرى المنخلعون عن مدارات "اللاانفلات" والمنطلقون بالتالي الى قوقعة الانفلات، اصبحوا يتماهون في ضلالات من الزيف، وعتمات من الوعي الزائف، لا يلبثوا أن يعمموه على المجموع الاجتماعي ليصير بالتالي سمة ثقافية او عرفاً اجتماعياً يمارس ضغوطاته الاجتماعية على كل من يحاول الانطلاق بسرعة قمر صناعي في محاولة

للانفلات من عقابيل الانفلات، والعودة الى مدارات اللاانفلات.

للمرة الثالثة، عاجزون عن الحب، وذلك لفظاعة الحياة التي تصمنا بزيف المعتقدات، وبحقية الهرطقات والخزعبلات التي تجتاحـــنا من خلفنا وأمامنا وعن يميننا ويسارنا، فما أن تلبث واحدة بالانقراض حــتى تطل علينا اختها اشــد منها بأساً، وانتن منها رائحة، واقبح منها قلباً وقالباً.

هذه هي الحياة بمفرداتها الخشنة، اذا لم تقدم نفسك وعقلك قرباناً لمعابــدها ومسارحها وباراتها، فأنت من المغضوب عليهم، عليك ازر المجوســيين، توصم على جبينك بوصمة عار تحدد معالمها بخنجر مغولي مســموم، وتلفظ الى مملكة الاقزام خشية ان تدوسك اقدام المتعملقين.

من جديد نعيد الكرة ونعود الى التأمل لنوجز فنقول:

اننا تعاملنا مع نص الحياة بصفته فضاء مثقوباً -بتعبير علي حرب- سمح لنا بالتمرد على هيمنات التقنينات، وبالتحرر من المطلقات وعبوديتها، والتعامل بالتالي مع جدلية الحياة بمرارة وقسوة، وخشونة مفرداتية، وقاعدة من المعطيات اللامعقولة، المحمولة على محمل المعقول.

كان هذا هو تأملنا منذ البداية وحتى النهاية، بــكل ما فيه من اللامعقــول واللامتوقع، والذي استفاد الى حد كبــير من المعقــول والمتوقــع. وكان بــكل كارزميته وعدم كارزميته، بــكل انكســاراته وانشــــطاراته، يمثل تماهياً مع اللامعقول وحمله على محمل المعقول.

مختصر القول، طالما هناك عقل للعقول - بــالمعنى الميكانيكي للجملة - طالما هناك ضد لهذا العقل يرفض ويشجب ويســتنكر ويتمرد، ســواء اخذ هذا الشجب والرفض والاستنكار والتمرد بعداً تجريدياً ام حيزاً مكانياً، ســواء تراكم في خزائن الذاكرة، ام ترجم الى واقع ميكانيكي.

فاذا – عطفاً على ما سبق – كان مختصر القـــول ما ذكر سابقـــاً فمختصر ما قبـــل المختصر لسنا نريد العودة بـــمفرداتنا الى عصر البربـــريات، لنعبـــر عن عصر الحداثة. لكننا اردناها مفردات خشنة، ليس من منطلق ديكارتي – أنا خشـــن اذا فأنا موجود –إنما اردنا التعبـــر عن خشـــونة الحـــــياة، بخشـــــونة مفرداتية ومرارة مصطلحاتية.

هذا بالنسبة لمختصر ما قبل المختصر، اما بالنسبة للمختصر الوارد بـــعد ما قبل المختصر – أي مختصر المختصر فمحمول على التمرد و الانفلات.

التأمل رقم "٢"

صراع الانخلاع ـ الانخراط

ان اللذعة التي تعترينا ساعة الانفصال او بالأحرى الانســلاخ هي لذعة الرهبة، والاقتراب والابتعاد، وتقمص سكرات الموت، ســاعة المتضادات التي تزلزلنا نتيجة تعريتنا من اقــنعتنا التي يجرفها تيار "ما كان"، عليه. مهما كان "ما كان" عليه حتى ولو كان جاهلية او وثنية او كفراً او ايماناً او حباً او .... الخ.

فهذه "اللذعة" عندما تتقمصنا ونتوحد معها، تمنحنا ألماً ممزوجاً بــتورد الجاهلية والحــضارة معاً على لوحــة الزمان المشــطوب، ويخامرنا – في ذات الوقت– شــعور بالرهبــة والعظمة معاً يبقــى محــفوراً – بــناء على ادراكاتنا وتصوراتنا – على لوحــة فولاذية مصلوبــة على مرايا الذاكرة، ولا سبــيل إلى انزياحها أو زحزحتها من قمقم الذاكرة اللعينة حتى نبقى – على الدوام – نحــن ان كنا مؤمنين الى كفرنا، وان متحضرين والى بداوتنا، ان عقــلانيين الى عاطفتنا، وان كنا ملائكة الى شيطانيتنا – أعني نحن البشر –، ولنبقى ايضاً نحن او بالأحرى نتجرع مطاعيما من الألم الممزوج بــلذة "اللذعة" والحــنين بــالتالي الى الزمن المفقود الذي يعشعش في الذاكرة مذ كنا لا شيء في الحياة الســرمدية اللامتناهية. وبرغم ضعف احتمالية زحزحة "اللذعة" الا ان الاحتماالية واردة فيما يتعلق بتنويم هذه "اللذعة" او تطعيمها بمطعوم الأفيون، حــتى يصار بــعد ذلك الى تدعيم هذا التنويم بادراكات وإحساسات تنعكس على "الأنا" حــتى تغدو موحــدة للانخراط و نابذة – في ذات الوقت – لــ "ما كان" من منطلق مواكبة الإنخراط بمعناه الظاهر لتطلعات الأنا وعجز ما كان – بــمعناه الظاهر ايضا عن مجاراة حماقــات "الأنا" التي اخذت تنداح كما العاصفة نحو نحــت انجازاتها على كوكب يلتهب التهابــاً، ايذاناً بانتهاء عصر السرمديات وعصر الــ "ما كان"،

والولوج بالتالي الى عصر اللوحة الأبدية، التي تعد بحضارة كوكبية "ينخرط" فيها الكل أو الـــ"نحـــن" – أي "الأنا" والـــ "هو" والـــ "هنا" والـــ "هناك" في محـــاولة لردم هوة "ما كان" التي احدثها ما كانت عليه الشـــعوب والتي أدت بـــدورها إلى الاختلافات والمشاحنات والمطاحنات والحروب بين بني البشر.

إذن زحزحة "اللذعة" غير ممكنة، لأنها قد تكون الحق، وحتى ولو لم تكن حقاً، فمسألة الانخلاع عن الأصل صعبة جداً حتى ولو قبـــع الرفض في ســـجون اللاوعي، فهذا محمد صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأنه قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق "بعث ليتمم" وهذا عمر بن الخطاب يخبرنا ايضاً فيقول :" من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام" حتى المسلم وان تجرأ وأعلن كفره، فإنه يبقى ولو على المســـتوى التجريدي، أو بالأحرى يبقى هناك عبد داخله يعلن عبوديته لله عن طريق التعبـــد والتوحيد.

وما ينطبق على المسلم ينطبق على غيره، فهذا "يوكيو ميشيما" يقـــول:" لا يقـــتصر دور الماضي على أنه قـــوة تشـــدنا الى الوراء، الى زمن مضى، ففي الماضي ذكريات بعينها، كأن لها زنبركات قوية عندما تمسها أيدينا".

ومن هنا يصعب على المرء ان يتحرر تحـــرراً كلياً عن ماضيه او اصله، فالعبقري عندما يبلغ مبلغاً عظيماً من العلم والمعرفة، يبدأ بالحـــنين على اثر ذلك الى "لاوعيه" حيث التدفق العفوي للمشاعر والأحاسيس والسلوكيات، وكأنه يصل الى ما يرشده بأن ماضيه أو "لاوعيه" هو قمة وعيه، بغض النظر عما قـــد يصف الأخرون ما به من الجنون، والهذيان او الهلوسة، او المرض النفسى والعقـــلي او ... الخ.

وما ينطبق على العبقري، ينطبق على كل شيء "انخلع" في فترة من

الفترات الغابرة عن اصله، فهناك العقلانى الذي يحكم عقله في كل شيء، لا بد له من الحنين الى عاطفته، حتى ولو بلغ مبلغاً عظيماً من العقلانية. و هناك المتحضر الذي يحنّ الى بربريته، و هناك الإنسان الذي يحنّ الى حـــيوا نيته، و هناك و هناك و هناك، حتى يوم القيامة يحنّ البعض الى معرفة قصص الماضى التي حدثت فى "الوضع الآني".

فعلى ما يبدو ان فكرة رحـــلة الحـــنين الى الزمن الضائع، فكرة تتشبــث بعقولنا مهما ادعينا تحررننا من قالبها الذي يغلف ركوعنا وســـجودنا وتنســـكنا، وزندقتنا وبربريتنا، وكل هذه الأشياء التي تلذعنا بـــلذعة الماضي، إذا ما توغلنا فيها، وسبحنا في ملكوتها.

التأمل رقم "٣"

التلقين والذاكرة

مخدوعون ان اعتقدنا بالمنطق القائل: بأن الماء لا لون له ولا رائحة ولا طعم، لأن الماء له لون لم يستطع العقل بعد ان يحدد سمات هذا اللون، وله رائحة وطعم، لكن نتيجة لتقدينا بقانون الحاسة الصارم حصل ما حصل.

هذا المنطق المتعلق بمنطق الماء، هو نفسه منطق المؤمنين بقوة الذاكرة، والكافرين بضعف العملية الفكرية، فالاشتغال على جبهة منطق الماء والمنطق المشابه لمنطق الماء، هو اشتغال يعمل على تنشيط الذاكرة، ويدفعها الى مزيد من حفظ المعلومات، لتبقى جبهة الذاكرة في نشاط دائم.

هذا الانخداع جعلنا او بالاحرى جعل العاملين على تنشيط ذاكرتهم، يقبلون -بطريقة مباشرة او غير مباشرة- على الشكل من دون المضمون، استناداً الى اسس العملية التلقينية التي تعمل او تدعو الى حفظ المعلومة دون فهم لهذه المعلومة او بالاحرى دون اخضاعها للتمحيص العقلاني.

بتعبير اخر، العملية التلقينية تطبع في الذاكرة معلومات لتخزينها وتبويبها واسترجاعها وقت الحاجة اليها. لكن العملية التلقينية لا تسعى الى اخضاع هذه المعلومات للتأمل الفكري والعصف الذهني.

اذن العملية التلقينية تسعى الى انتاج افراد ذوي ذاكرة سريعة الحفظ وسريعة الاسترجاع. اي انها تركز على انتاج افراد يهتمون بالجانب المرئي للمعلومة، لكنهم- اي الافراد سالفى الذكر- او بالاحرى لا يعنيهم الجانب

"اللامرئي" للمعلومة او جوهر المرئي، او يصبحوا غير قـادرين على فلسـفة المعلومة او البحث في كنه هذه المعلومة.

وهذا بدوره يؤدي الى تخبط في المخ البشـري. اذ يتم التصعيد من حـدة الذاكرة، في نفس الوقـت الذي يتم فيه تناسـي دور العملية الفكرية التي يمكن ان تبرر للفرد او بالاحرى تضع فلسفة للمعلومة التي يحفظها. بـلغة اخرى، العملية التلقينية تنتج فرداً نشطاً ذاكرياً قادراً على حفظ المعلومة، وفي ذات الوقت يكون خاملاً فكرياً، ومن هنا تنشـأ حـالة الضعف الفكري التأملي لدى الفرد النشـط ذاكرياً .اذ يعمد الى طرح اطروحته بناء على معلومة حفظها دون ان يعي او دون ان يكون قادراً على فلسفة اطروحته.

وعلى افتراض- جدلاً- ان من يتمتع بذاكرة نشطة المّ بشـكل ومضمون المعلومة، فانه يكون ما يزال يعاني من حالة من حالات الوعي الزائف، اذ يكون قد حفظ المعلومة فعلاً وقد حفظ فلسفتها، او ألمّ بشكلها ومضمونها، لكنه ما يزال غير قـادر على اخضاع هذه المعلومة (شـكلاً ومضموناً) الى التأمل العقـلى، والعصف الذهني، ليتأكد من مدى صلاحيتها او ضعفها ليتم على اثر ذلك قبـول هذه المعلومة او رفضها.

وعلاوة على ما ذكر، يمكن للذاكرة – اذا ما تم الاعتماد عليها اعتماداً كلياً – ان تؤدي الى او بالأحرى توقـع صاحبـها في متاهات التخزين والضعف في تخزين المعلومات. والضعف في اسـترجاع المعلومات. هذا بـالاضافة الى اشكالات الذاكرة القصيرة الأجل، وطويلة الأجل، وقـد يصل الأمر الى فقـدان

الذاكرة، وحدوث كارثة بالتالي– تلم بذاكرة الفرد– تؤدي بمعلوماته الى الاندثار والانتحار، والتأثير بالتالي على الذاكرة كمعطى من المعطيات المشتركة بين بني البشر.

وفي هذا انتقـــاد جوهري للعملية التلقـــينية، اذ انها لم تعمل على علاج الاشكالية علاجا احترازيا او وقائياً، ولم تعمل على نبذ حالة التخبط بـــين جبـــهة الذاكرة، وجبهة العملية الفكرية.

أمل رقم "٤"

"الوعي" و "اللاوعي"

في كتابة الشعر

ان الشعراء يولدون ولديهم القدرة على قول الشعر في اي موضوع، لأن الموضوعات بمجملها تكون منطوية تحت مظلة العملية الفكرية بشقيها: "العليا" و "السفلي" وفي تقسيمنا لهذا العمليات ارتأينا ان نطلق على "العليا" منها اسم "الوعي" وعلى "السفلى" اسم "اللاوعي".

القصيدة بادي ذي بدء سواء كتبت في حالة "الوعى" او "اللاوعي"، فانها تكون موجودة- في الاصل- فى عقل الشاعر اللاشعوري. لكن كيف يمكن لفكرة القصيدة ان تترجم من منطقة " الوعي" او "اللاوعي" الى ارض الواقع؟ او بالاحرى كيف يمكن نقل فكرة القصيدة من "الحالة الشعورية"- الوعي واللاوعي - الى "الحالة الحسية"؟

لاحقا لبادئ ذي بدء يمكن لحدث ما ان يصنع نصا شعريا علويا او سفليا خلا ان هناك اختلافا جوهريا بين الحدث الذي يصنع نصا شعريا علويا، والحدث الذي يصنع نصا شعريا سفليا.

فالحدث الذي يستطيع توليد النص الشعري العالي "الوعي" هو "الحدث الخارجي " الموجود ضن الاطار الخارجي للشاعر، او البيئة المحيطة بالشاعر. لكن ليس لأي حدث ان يولد نصا شعريا بليغا. فهناك- على رأي محمود درويش- حدث يصنع نصا كبيرا، وحدث لا ينتج شيئاً.

فحدث الانتفاضة الفلسطينية- على سبيل المثال- الهب الحس الشعري عند الشعراء- بعض الشعراء- وجعلهم يصنعون نصوصا شعرية ضاجعت عبقريتهم الشعرية فيها آلام الحدث وفظاعاته.

وفي المقابل هناك"حدث داخلي" يصنع عملا شعريا سفليا"اللاوعي". فهذا "الحدث الداخلي" يكون بمثابة ضغوطات عنيفة تمارس شرعيتها على عقل الشاعر، فتدفعه الى تقنين هذه الضغوطات ولجم مخاضاتها عن طريق توليدها واخراجها من رحم الشاعر الى بيت الشعر.

وهذا "الحدث الداخلي" يكون حكراً على الشاعر نفسه، فلا يستطيع ان يعيش اجوائه ويحيا ضبابيته ويتقمص ضغوطاته الا الشاعر الذي تعرض لهذا الحدث الجسيم، وليس لأحد – اي كان- ان يتقمص نفسية هذا الحدث. لأنه نفس خاص بالشاعر – اعني الشاعر الذي يلد قصيدة من رحمه – لأن قصيدة "اللاوعي" قصيدة خاصة جداً جوهرها ترجمة لسيكولوجيات الشاعر، بصفتها عاكسة لمجمل خبرات الشاعر الباطنية. على عكس قصدية "الوعي" التي تعتبر في جوهرها ترجمة لسوسيولوجيات الشاعر، لأنها تعكس مجمل خبرات الشاعر الظاهرية بعد اخضاعها لعبقريته الشعرية.

وحقيقة ان العمل الفكري العالي او بالأحرى "الوعي" بحاجة الى إعمال ذهني و فكري، وبحاجة الى جلسات "عصف ذهني" للحدث الذي اثر في الشاعر، ليمعن النظر في هذا الموقف المؤثر، بحيث يتمكن من غربلة افكاره في منظومة "الوعي" وما يتمخض عن هذه الغربلة من افكار يتم صياغتها على شكل قصيدة تجرد موقفاً عنيفاً.

بينما العمل الفكري السفلي "اللاوعي" ليس بحاجة الى إعمال ذهني

وعصف للأفكار لأنه يتحدث عن العواطف والوجدانيات وآلام وزفرات الحب التي تتمركز في قلب الشاعر أو بالأحرى في منطقة "اللاوعي" (العقل العاطفي للشاعر). فالشاعر ودون وعي منه يمسك قلمه ويبدأ بكتابة قصيدة عاطفية يعبر فيها عما يتقد ويتأجج في عقله العاطفي الباطني. بعد ان يكون قد تقمص نفسية الحدث الذي مارس ضغوطاته عليه وجعله في حالة من "اللاوعي".

الدفقة الشعورية العاطفية

من غير الممكن لأي كان ان يفلت من عقابيل الماضي او من الحنين الى الزمن الضائع، اي الى لا وعيه، على اعتبار أن "اللاوعي" هو القاعدة التي يستند عليها البناء اي الوعي – في بلورة ذاته الى محسوسات.

وهذا الحنين الى الأساس الضاربة جذوره في قماقم "اللاوعي" يبدأ بممارسة ضغوطاته على الشاعر في لحظات تفكك وعي الانسان أو بالأحرى في لحظات تتشظى فيها الأنا الواعية لتبدأ مرحلة أخرى بالهيمنة على الشاعر، هي مرحلة الأنا اللاوعية.

والأنا اللاوعية هي مرحلة تبدأ بافراز دفقات الشاعر العاطفية على الورق، دون ان يكون هناك اجهاد تجريدي يستنزف سعرات الشاعر الفكرية، ودون ان يكون هناك جبهة يعمل عليها الشاعر، خلا جبهة عواطفه المستشعرة، اقول المستشعرة لجلاء الأمور.

وهكذا يتضح لنا بأن التدفق الشعوري مركزه العقل العاطفي او بالأحرى الانا اللاواعية، والتي تعمل بصورة ميكانيكية للضغط على مشاعر ووجدانيات الشاعر لنقلها بالتالي الى واقع حسي، أي ترجمتها على الورق، وهذه الترجمات تنساب

من انا الشاعر، نتيجة للحظات من الشـــوق الدائم الى معالم الأنا الأولية التي لا يحتاج فيها الشاعر الى إعمال ذهني او الى عرض نرجسيته الفكرية، سوى أنه يحتاج الى جلسة تفرضها مشاعره وعواطفه ووجدانياته الملحة، والتي تسـعى - على الدوام- الى تجسيد معالمها الدفنية وبلورة ذاتها.

وليس معنى هذا أن قصيدة "اللاوعي" قـصيدة لا واعية - بـالمعنى الضيق للعبارة- فقصيدة "اللاوعي" بقدر ما هي لا واعية - بالمعنى المتحضر - بقدر ما هي واعية تمثل حساً صادقاً نقياً غير متلاعب بسـجيته، على اعتبـار ان التدفق العاطفي ينطلق من منطقـــة صافية غير ملوثة، وعلى اعتبـــار - ايضاً- ان الفضاءات النفسية والأجواء الوجدانية الداخلية هي البـوصلة الموجهة لقـصدية "اللاوعي" ولا اعتبار فيها - في الوقـت ذاته - للفضاءات الاجتماعية والأجواء الثقافية الخارجية. ومن هنا وإذا اعتبرنا قـصيدة "اللاوعي" حـالة من حـالات الفوران النفسي للشاعر، وحركة مد عاطفي، فإنها تشكل بالتالي معلماً بـارزاً من معالم التعبـير عن جزء من اجزاء العقـل البشـري، اي ان قـصيدة "اللاوعي" استطاعت ان تشتغل على جبهة صعبة المراس، وتمكنت اثناء اشتغالها على هذه الجبهة من الالمام بجزء من جزئيات العقل البشري التي تكون موشحـة بوشـاح "الوعى" لفترة طويلة.

بلغة اخرى، قصيدة "اللاوعي" تمثل مرحـلة هامة جداً في فهم كنه النفسـية البشرية وتحديد معالمها. فــ "اللاوعي" بصفته المغذي لنوع من القصائد يعتبـر بمثابة العصور البدائية او السحيقة المجهولة التي اكتشف جزءاً من معالمها وليس كل معالمها.

وفي محاولة من "اللاوعي" في إفهام "الآخر" كنه معالمه، يعمل على إ

إخصاب بنات افكاره لتولد بالتالي قصيدة تفهم "الآخر" ولو نزرا قليلاً من معالم اللاوعي، ومثال ذلك قصيدة بعنوان "ليلى" للشاعر "محمد ابو صبح" جاء فيها:

تزوجت ليلى

ووحدي تركتني

حملت حقائب السفر

حقائب كثيرة

حقائب كثيرة

مليئة بالخطايا

مليئة بالخيانة ... لحبي

فهذه القصيدة كشفت عن مجهول – بصفتها متمخضة عن منطقة اللاوعي– يتمثل في ان الحقائب يمكن ان تحمل في متنها خطايا وخيانة تعصف بنفسية الشاعر وتزلزل او بالأحرى تشظي وعيه وتدفعه الى تحميل الحقائب بالخطايا والخيانات بدلاً من الامتعة وغيرها.

وعلى هذا يكون "اللاوعي" بمثابة مرحلة مجهولة غير مكتشفة المعالم، تعبر عن نفسها بما تمنحه للشاعر من جلسة خرافية على اطلالها، يبكي وينتحب ويتجرد من اقنعته وتتزاحم اقدام الافكار الى مخيلة من حيث لا يدري، ويبدأ على اثرها بافراز شطحاته وهلوساته ومعالم عالمة الآخر، ليظهرها للعالم ويتطلع عليها الآخرون، على شكل قصيدة ولا أجمل من شاعريتها، وحالتها النفسية، وضبابيتها الموشحة بوشاح أبيض مقدس.

الدفقة الشعورية العقلية

الوحدة الشعورية العقـلية او المخ المفكر مركز او وعاء يحـوي مجمل خبرات الشاعر في هذه الحياة، لهذا تعتبـر هذه المنطقـة مرتعاً خصبـاً لأفكار الشاعر المتزاحمة التي لا تلبث ان تنطلق من قمقمها الى فضاء مثقوب، يساهم في ابداع سمة ثقافية جديدة تشكل لبنة من لبنات المشهد الثقافي، فالمخ المفكر لشاعر من الشعراء مسؤول عن ضخ أفكاره او بالأحرى مسـؤول - بـصفته جزءاً من عقل الشـاعر - عن بـلورة أفكار الشـاعر على المسـتوى التجريدي أولاً ثم المحسوس ثانياً ليكون المولود الجديد سـالماً من الناحـية الجينية لأن أي تلاعب بالمستوى الأول يعمل على احداث فظاعات - جسدية ونفسية وعقلية - بالمستوى الثاني.

وهذا التبلور لأفكار الشاعر او بالأحرى لقصيدته على المستوى التجريدي والحسي، بحاجة الى ضغط ميكانيكي يمارسه الشاعر على افكاره التي تعاني من الفوضى العارمة، ليعمل بالتالي على ترتيبها وتبويبها على الشاكلة التي يرتئيها. وربما هذا الضغط الميكانيكي هو ما جعل "فولتير" يقول: - في اعقـاب اعتبـار رجال الدين الفرنسـيين زلزال لشبـونه عام ١٧٥٥ عقابـــاً لأهل المدينة على خطاياهم وذنوبهم-.

أنا جزء من الكل الكبير

نعم، لقد حكم على جميع الحيوانات بالحياة

لقد ولدت جميع المخلوقات بمقتضى القانون ذاته

وهي تتألم مثل ومثلي تموت

يشد الصقر على فريسته الوجلة

ويطعن بمنسره الدامي اطرافها المرتعشة

ويبدو كل شيء على ما يرام في عينيه لفترة

ويمزق النسر الصقر الى قطع شر تمزيق

ويرشق الانسان النسر بنباله ويقتله

ويسقط الانسان في غبار معارك الحروب

ويختلط دمه بدماء القتلى مع رفاقه

ويصبح بدوره طعاماً للطيور الكاسرة ....

ان القصيدة في هذا المضمار – مضمار الوعي – تجسد موقفاً عقلانياً باطنياً انفعل – لكن بوعي – مع الحدث الخارجي، – أياً كان هذا الموقف (سياسي، اجتماعي، فلسفي، ... الخ) وراح يصيغه برمزيته الشعرية ليعبر عن حالة من الانفجار الداخلي – نتيجة التفاعل الوجداني الواعي مع الحدث الخارجي – الذي لا بد له من الانتقال من قوقعته المتمركزة في المخ المفكر الى مداراته المتحررة التي يعايشها كل من يعينه أمر صناعة المشهد الثقافي.

بلغة اخرى، فكرة القصيدة الواعية او المتوالدة من المخ المفكر، موجودة في الاصل تعيش في حالة فوضى، لكنها بحاجة الى مثير – الحدث الخارجي ههنا – لنقلها من حالة عدم الاستقرار الى حالة الاستقرار، لتعالج بالتالي، قضية من القضايا أياً كانت هذه القضية (اجتماعية، سياسية، فلسفية... الخ).

وبهذا تكون قصدية الوعي – المتمفصلة عن الوحدة الشعورية العقلية – قد تمخضت عن وعي كامل – لكنه نسبي – ساهم في هذا الوعي ثقافة الشاعر الواسعة وحسه المرهف وشعوره النامي بحجم الالم الذي يضاجع الموقف الذي يعمل على تجسيده في قصيدته.

وغالباً ما تكون حالات الوعي سبباً في ولادة قصائد سالمة جينياً وبـيئياً، ويتأمل منها زيادة وعي "الآخر" وزيادة تثقيفه، وتعريفه بالجوانب المظلمة لعصر التنوير، ليصار - بعد نمو الوعي الاجتماعي - الى تحرير "الأنا" من اخطبـوط "الآخر" والعمل بالتالي على تغيير "الآن" واستبدالها بـ"الآن" السليمة المتزنة.

الفصل الثاني

تأملات في الحياة من منظور سوسيولوجي (اجتماعي)

"لا يكون للحياة من قيمة، الا اذا كان لها غاية"

هيجل

معال في الوصع الآتي

التأمل رقم "١"

تربية الآباء قبل الأبناء

قد يبدو القارئ مشدوهاً للوهلة الأولى، فيقـول لنا: ما هذا "اللامنطق"؟ لكن وما أن يتمكن من سبر أغوار هذا الكلام، حتى يتلاشى هذا "اللامنطق" ويتبدد من مخيلته، ليعود من جديد، فيقول لنا ما هذا المنطق السليم؟

فالعلاقة في جوهرها بين الآباء والأبناء تبـادل منظم لنفس الدور في مدار النسق الاجتماعي، فالأب في طور من أطوار حياته يكون أبناً والابـن هو الآخر سيكون أباً في طور من أطوار حياته "الآنية"، لكنها لاحقة.

ومكمن الخطورة في هذا الطرح وتأثيره سلبـاً على مسـيرة النسـق الاجتماعي، ونشوء خلل فيه هو عدم كفاءة الآباء في القـيام بـأدوارهم كمربـي أجيال، أجيال غير خجولة ومستكينة، وواثقة من نفسـها ومن دورها الأجتماعي، وقادرة –ايضاً – على التحدي والصمود للفوز بهذا التحدي.

وعدم كفاءة الآباء تنشأ بادئ ذي بدء من تقهقر الآباء أنفسهم، وعدم قدرتهم على صياغة شخصياتهم، بطريقة تمكنهم من انتاج جيل جديد قـادر على تحـمل اعباء الأمة، ومن هنا نصل الى أن تربية الأبناء مسؤولية الآبـاء، والعكس ليس بالعكس أي أن الآباء ليسوا مسؤولية الأبناء، فاذا تعاملنا بـهذا المنطق، فتربـية الآباء – موضوعنا هاهنا– مسؤولية من؟

إن مسؤولية تربية الآباء هي مسؤولية الآباء أنفسهم، فالأب قبل ان ينتقل الى هذا الطور – أي في الطور الذي كان فيه ابناً – يقع على عاتق أبيه تربيته تربـية سليمة غير متلاعب بنقائها، تتحد فيها متطلبات الجسـد والنفس والعقـل ليكن تعليمه فيما بعد منسجماً مع التوجه التربوي السليم.

وهذا التوجه التربوي في تشكيل النفس والجسد والعقل تشكيلاً مستقيماً، يجعل من جيل الأباء جيلاً مهذب السلوك، انعكست نفسيته السليمة ايجابياً على سلوكه الاجتماعي، فاصبح عنصراً نشطاً قادراً على تحريك العجلة التنموية للأمة نحو الأمام من خلال مشاركته الفاعلة في تربية ابناءه تربية سديدة، بحيث يصبح الأبناء مورداً بشرياً يساهم بفاعلية متناهية العنف في العملية التنموية التي لا يكتب لها النجاح بدون المورد البشري، ومسؤولية الآباء في تربية الآباء –نفسياً وجسدياً وعقلياً – مسؤولية خطيرة وحساسة.

(خطيرة) فيما قد يتمفصل عنها من انعكاسات سلبية على الآباء، من هشاشة في ترويض – بالمعنى العقلاني للكلمة–النفس والعقل وترجمة هذه الهشاشة الى واقع قد يخلق مناخا استبدادياً، فمثلاً، ممارسة الاب العمليات الفكرية بالنيابة عن الآباء وهم في طور الابناء ، يجعل من هؤلاء الآبــاء مجرد آلات ميكانيكية تعمل بالريموت كنترول، وتصبح بالتالي غير قـادرة على الاعتداد بـالنفس، و التفكير بنمطق عقلاني.وابسط الصور التي يمارس فيها الآباء التفكير عن الآبــاء – أي ابناء الأن. أعني "الآن" بـالمعنى الضيق – تتمثل فى اختيار الزي والاصدقـاء، واحياناً تتدخل العناية الأبوية الدكتاتورية في اختيار شريكة الحياة.

إلى هذا الحد وصلت الممارسات الأبوية الموسولينية؟ نعم، بل الى اكثر من هذا الحـد، ففي كثير من الاحـيان خصوصاً في المجتمع الريفي يعمد الأب الى وضع خطة تعسفية–بدون وعي عقلاني–يحـدد بموجبـها مستقبـل ابـنه–أب المستقبـل، ضمن معطيات الآن–الى ان يذهب الى مقبـرة التاريخ من تدخل في اختيار نوع الدراسة وبالتالى الوظيفة، والزوجة وبناء البـيت، وانجاب الاطفال ربـــما يكون الأب ينجب اناثاً لكن الاب الهتلري يريد ذكوراً –هذه معضلة.

اذن، لابد من اعلان الزواج من امرأة اخرى.

لقد اصبحت العناية الأبوية التعسفية تتدخل في كل شيء الى درجة بناء امبراطوريات أبوية محاطة بقوة تعسكر بالقرب من تصرفات الأبناء، وتحكمهم - أي الآباء - "بقبضة من حديد مغطاة بقفاز من حرير".

و(حساسة) - ما زلنا نعني تربية الآباء فيما قد ينتج عنها -ايضاً- من انعكاسات سلبية، لكن في هذه المرة على "المجموع الكلي للأمة"، فتصبح غير قادرة - اي الأمة - على تكوين كل متكامل، وتتعرض بالتالي الى التمزق والتبعثر والاختراقات بكافة أنواعها، واشكالها، مما يؤدي أو بالأحرى يجعل الأمة تركض بجنون خلف شؤونها الصغيرة التي ترهقها وتبعثر قواها، وتجعلها غير قادرة على الانخراط في الاعمال العظيمة التي تخلد الامم، وتمنحها هوية تميزها عن باقي الأمم.

لقد تردت الصياغات الابوية للآباء، ولقد تصاعدت مصادرة الحقوق وعلى راسها الحق في التفكير، تحت مسميات فهمت بطريقة مغلوطة أمثال "العاطفة الدينية" و"الحق المشروع في الهيمنة الأبوية". فمن هذا ما نشاهده من الآباء في اسباغ هالة من القداسة حول انفسهم وتصرفاتهم، يباركها الابناء - طوعاً او كرهاً - اي الآباء - بموجب "صكوك العاطفة الدينية" التي يفسرها الأب بما ينسجم مع مصالحه اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً والى ما لا نهاية، فعلى سبيل المثال نجد الأب يكره ابنته على اختيار شريك حياتها مفسراً الأمر بوجوب طاعة الأبن - ذكراً أو انثى - للأب لأنه أعلم بالمصلحة الدينية والاجتماعية.

يحملون هرطقاتهم على محمل الدين، ليجدوا مبرراً قوياً يساعدهم في فرض منطقهم يفسرون باسم الدين، والدين براء من هرطقاتهم ونظراتهم

التعسفية المزوجة بالغباء بأمور الدين وأمر الاجتماع.

وعلى الرغم من كل هذا إلا أن تربية الآباء قبل الأبناء، ليست عملاً فوق طبيعي أو علماً سحرياً، لا يتقنه إلا الفلاسفة والمشعوذين، بل هو على العكس من ذلك، حيث إنه عمل طبيعي يجب أن يتقنه الكل للمحافظة على الأسرة والمجتمع من الضياع والشرود الآخذ في الامتداد هذه الأيام نتيجة لضعف الاساليب التربوية في تربية الآباء، وعدم جديتها وجدواها. وهذه الاساليب التربوية الضعيفة والمتردية لم تأت هكذا بالصدفة او وصمتنا بها القوة العفريتية. بل إنها تراكمت في العقلية الأبوية عبر تاريخها القصير – والتي تعتبر في جوهرها امتداد للعقلية الابوية السالفة – الى درجة اصبحت معها هذه الممارسات شبه تقليد يلتزم بها كل من يحاول اجترار الحياة، وحقاً هذه هي الطامة الكبرى، فالآباء يعيشون "الآن" (الحاضر) والابناء سيعشون "غداً" (المستقبل) – كل هذا ضمن معطيات الوضع الآني – فالآباء الذي يصوغون ابناءهم – آباء المستقبل – بصيغة (الماضي) و (الحاضر)، ويتجاهلون – بوعي او بدون وعي – صيغة (المستقبل) هم آباء يسيرون في دائرة مغلقة لانعدام منطقيتهم وواقعيتهم.

وهذا التشرذم بين (الحاضر) و (المستقبل) هو الذي ينشئ حالة اغتراب بين "الآن" و "الغد"، يدفع ثمنه الفرد والمجتمع والامة.

ومسؤولية التوليف بين (الحاضر) و (المستقبل) بين "الآن" و "الغد" مسؤولية الجيل الأبوي الواعي المثقف والمنفتح على الحياة بدافع وضابط.

مسؤولية الجيل الأبوي الذي ينهل من (الماضي)، ويستفيد من (الحاضر) في تكوين قاعدة راسخة يستند عليها من اجل (المستقبل).

التأمل رقم"٢"

النساء وفخ الرجولة

على وجه الجملة، تمارس الرجولة ربوبيتها المقدسة على الجنس الانثوي، ليس من منطلق منطقي، بل من منطلق تعسفي مريض يعاني من ثقب في قزحيته عمل ويعمل على تخلخل في موازيين النظام الانثوي على المستويين المرئي واللامرئي.

فالرجولة تعود بشكلياتها- وفي كثير من الاحيان بمضامينها- الى العصور البربرية، لتجسد ذاتها بطرق غير مقدسة، معلنة في الوقت ذاته انها الانسب والاصلح للوصاية على عرش مملكة النساء. ومن منطلق الانسب والاصلح المغلوط بدأت اقطاب الحياة- اعني الرجل والمرأة- بالتنافر والتضاد والتشرذم، فقامت حملات شعواء- يترأسها الجنس الذكوري- تطالب بحقوق المرأة التي يشوبها الحذر.

المشكلة تكمن في اقتناع الجنس الانثوي باكاذيب الرجال واخطائهم، وابقائهم- اي الجنس الانثوي- على هذه الاوضاع، وعدم سعيهم الى نسف هذه الاخطاء والاكاذيب بل يعملون على تقديس هذه الاغلوطات واسباغ هالة من الجلالية عليها، حتى غدت المرأة- مع بدايات القرن الحادي والعشرين- اكثر انقيادا للرجل من ذي قبل، على الرغم من كثرة المؤتمرات النسوية، والمهرجانات واندية عرض الازياء والاجساد والافلام الهوليوودية، وغيرها الكثير التي توحي "قالبا" بانعتاق المرأة من معتقلات الرجل، على عكس "قلبها" الموحي بعودة المرأة الى عصورها الغابرة، وحنينها الى قوقعة الرجولة.

رغم هذا الا انه ليس ثمة مشكلة في ايمان المرأة بمنطقية الرجل المتمرس

على احترام مقدسات المرأة والمضطلع بدور بطولي في حمل المرأة على حصانة الابيض واخراجها من قمقم العصر المظلم الى عصر المرأة الذهبي، لكن ثمة مشكلة- في المقابل نوجس منها خيفة- ساعة إيمان المرأة باشباه الرجال وبشكلياتهم التي تسعى الى تهجين المرأة وترويضها وتقنين شكلها الخارجي عن طريق رسم جغرافيا جسدها، والتعدي على معالمها الانثوية واكثر مايتمثل هذا التعدي في انماط اللباس النسوية التي يصنعها الرجال في معامل باريس وايطاليا واسرائيل في محاولة لانتزاع هالة القداسة عن الانثى والسعي الدؤوب الى عولمة جسدها ومصادرة هويتها.

هذا التعدي الذكوري يباركه الجنس الانثوي، ان لم يكن شكلاً فمضموناً، او العكس بالعكس، خوفاً على مصالحه مع قطب الحياة الاخر، وخشية ان يتهم بالرجعية والبربرية.

لذلك تعمد المرأة في كثير من الاحيان الى لبس لباس مخالف لمعتقدها وارثها الفكري والتراثي والاجتماعي من اجل التماشي مع الوضع السائد المنخلع عن ذاته فلا ا همية للانخلاع بقدر ما هناك اهمية للانخراط، لا اهمية للمبدأ او المعتقد طالما أن الكل يتمرد على هذا المبدأ الذي لم يعد له مكان أمام جهابذة البشرية من المنظرين في المؤتمرات النسوية، والمشرفين على مهرجانات التعري، والقائمين على حراسة افكار العالم الفذّ "سيغموند فرويد".

مقدمات رجولية خاطئة تمخض عنها بالضرورة نتائج انثوية خاطئة، ابتداء من حملات تدجين العقل الأنثوي على الشاكلة التي يرتئيها الرجال، والانتقال بالتالي الى تدجين سلوكها، على اعتبار ان السلوك ابناً شرعياً للفكر.

ونتيجة لهذه الاغاليط كان لا بد للمرأة من الوقــوع في مصائد الرجال، والاعتراف بقدرتهم على ابتكار الوسائل والادوات من اجل اذلالها واستعمارها، الى درجة اصبحت فيها النساء وكأنهن"مازوخيات" يتلذذن بالظلم الواقع عليهم من طغاة الرجال. واعتبار هذا الظلم نوعاً من التحضر والتمدن والتقــدم الخروج من القمقم المسدود بسدادة المبادئ والعادات والتقاليد، فأصبح سير المرأة نحــو الفخ الرجولي، نيشان تتفاخر به النساء دلالة على الانفتاح الحضاري، وعدم الانغلاق داخل حدود الموروث المبتذل البالي.

التأمل رقم"٣"

المرأة بين الانخلاع والانخراط

دعونا نتفق- باديء ذي بدء- على ان المرأة رجولة الانثى والانثى طفولة المرأة، وذلك منعاً للخلط بين المرأة كمحسوس والانثى كمتعال او بالاحرى كمجرد خشية ان نقع في "اللامنطق " وثأراً للامنطقيتنا نحمله- اي اللامنطق- على محمل المنطق لنصير من لامنطقيتنا منطقا لا منطقيا، تمخض عن مقدمات اولية تعانى من الفصام، ومنعاً للوقوع في هذه الخشية اشفعنا الطفولة بالرجولة وعطفنا الرجولة على الطفولة، ليكون لما ندلي به منطقيته وحسه السليم.

بداية تتشكل معالم الانخراط النسوي- مع التحفظ النسبي على اللفظة- السليم في مجتمع من المجتمعات عندما يكون هذا المجتمع نظيفاً بصرا وبصيرة، او بالاحرى عندما يكون طاهراً- ليس قذراً- فكرياً وسلوكياً كالمجتمع الاسلامي ابان العصر المحمدي الذي شرّع فيه قانوناً إلهياً لحماية المرأة من السلوكيات الوحشية التي مورست- مع نزع الاعتبارية الزمانية- ضد المرأة في المجتمعات البشرية قاطبة من اول الزمان الى آخر الزمان، كشكر "افلاطون" للرب على خلقه رجلاً وليس امرأة، والوأد الجاهلي للنساء، والجهود القائمة الآن الى عولمة جسد المرأة- بحسب تعبير يوسف القرضاوي- وفكرها.

وبعد التشريع الرباني- ابان العصر المحمدي- للنص- الضامن للمرأة حقوقها - جاء التطبيق المحمدي للنص الرباني وتحويله الى سلوك احترم المرأة، وعيّشها في جو اسطوري، عجزت عنه مثالية "افلاطون" وشاعرية "نزار" ورومنسيات العشاق في روايات الحب والغرام.

كان هذا هو اساس الانخراط حيث الطهارة والامان، اوبالاحـــرى يصير الانخراط قاعدة في المجتمعات الطاهرة العذراء، يصبح الانخلاع بالتالي شذوذاً مرفوضاً نصاً وسلوكاً لكن الصورة ذاتها ينقلب منطقـــها فى المجتمعات الضالة التي تتزعمها وتقوم على حراستها"كلاب قذرة". فالمرأة– في مثل هذه المجتمعات – مدعوة باستمرار الى ذبح منطقها، وطعنه بخنجر مســموم، فتجدها محــاطة بالعناية البشرية المتألهة ساعة خروجها على النص وكسرها للســلوك الســليم، وترعرعها في اجواء ضبابية غير ظاهرة المعالم لتبقـــى على الدوام في دياجير الظلام، تعاني من انعدام الضوء نتيجة التعدي على المصادر الاساســــــية التي تمدها– فسيولوجيا وســيكولوجياً وسوســيولوجياً– بـــالعزة والكبــرياء وقـــوة الشخصية، والنفاذ الخارق في هذه الحياة.

ومن منطق المنطق المقولب تبدأ المرأة في المجتمعات الضالة بالانخلاع عن ارثها البيولوجي والســيكولوجي، لتبــدأ مرحــلة جديدة– فرضتها الكلاب القـــذرة– الانخراط في المجموع الاجتماعى هو الحــــل الوحـــــيد، لتكون من دعاة"تحرر المرأة" على المستوى الجسدي، لتشكل بالتالى–نتيجة لهذا الانخراط– ازمة نفسانية ترهق المرأة وتحدث بلبـــلة نفســية تضغط عل مناطق"اللاوعى" او "الشــعور الدفين" الذي يرفض مثل هذا الانخراط البربــــري. ونتيجة للضغط المتبادل بين "المجتمع القذر" و "مملكة المشـــاعر"، ينخرق ضمير المرأة وتصاب بثقب اجتماعى جسيم، فتحاول تجسير الهوة الضميرية لكنها تفشل فشـــلاً ذريعاً، فتسارع بـــالتالي الى ردم هوة الثقـــب الاجتماعي، فتعمل على تحقـــيق رفاهيتها الاجتماعية عن طريق تعريض جسدها للقيل والقال، والتنظير لهذا الجسد ومدحه والثناء عليه من قبل رجال الصحافة ومصممي الازياء النسوية، والرجال

المضطلعين بدور خطير في اشراك المرأة– كمضيفة او حاملة اوراق او مقدمةزهور – في الاعمال الرجولية الهزيلة.

باختصار، المرأة في المجتمعات المنخلعة تعاني من تخبـــط في منظومتها النفسية والاجتماعية، فالرجحان النفسي يسبــب للمرأة نبـــذاً اجتماعياً عنيفاً، لأن الرجحان النفســـي يعني العودة الى المنطق الســـليم، وهذا ما ترفضه المجتمعات القـــذرة التي تســـتهوي العمل على جبـــهة"اللامنطق"، لذلك تعمل على نشــــــر ضغوطاتها الاجتماعية التي تسبب انتباذا مجتمعياً للمرأة المنطقية السليمة نفسياً.

اما الرجحان الاجتماعي فيؤدي الى ضغط الافكار المنطقـــية في "العقـــل اللاشـــعوري" على ممارســـات المرأة "اللامنطقـــية" مشـــكلة بـــالتالي (التأنيب الضميري) للمرأة، خصوصاً بعد ان تكون هذه الضغوطات قد بلغت مداها وبدأت بالتململ كالمارد من فانوسها السحري.

القضية – اعني قضية الانخلاع والانخراط – تضطلع بدور متأله، يشرع قوانينه لانتهاك قداسة المرأة، خرق وشاحـــها الطاهر، وســـيؤول هذا القـــانون المنخلع – الذي تحرسه الكلاب القذرة – الى تسجيل بطولات فاشلة لا تخرج منها المرأة الا بصليل السيوف الخشبية التي يصنعها الرجال خصيصاً لهذه المهاترات البطولية.

التأمل رقم "٤"

ارتداء عباءة الدين

انها لعنة النرجسية التي تلبست بين البشر على امتداد الزمان، في محاولة منهم لاعلان وجودهم داخل النسق الاجتماعي بـــمعناه الضيق والعريض، وعلى حســـاب من ، انه على حســـاب"الآخر". ولكن كيف السبـــيل الى اعلان الوجود الاجتماعي؟.

لا بـــد من كارزمية ما تضغط على "الآخر" ليصدق- طوعاً او كرهاً- او بالاحرى ليعلن وجودي او ليثبت نرجسيتي ولو تلمقاً او رياءً.

لا بد من عباءة حجازية اتستر بها على شيطانيتى، عباءة داكنة اخفي بـــها رقع جلابيبي، واخاديد جسدي، لأظهر بمظهر لائق امام"الدهماء"، ليبقـــى الجميع على احترامي وتقديري وتعظيمي بل وتأليهى. فانا- اي الأنا- لا اقبل بـــأن اكون باقل من إله اطرد الروح الشريرةا للعينة، فأعمد الى تبكيت اجساد النساء"بالابر"، لأنها التعويذة الانسب- من نظر المرتدين لعباءة الدين- لتطيهر المرأة المذنبة من الروح الشريرةالشيطانية التي تلبست جسدها، وبدأت بالتالي باحـــداث تأثير على سلوكها الاجتماعي.

انها ممارسات السلطة الدينية المغلوطة التي يمثلها الاغبياء من المتدينين، او قل: المدّعون بقوة منطقهم الديني، والذين يندفعون من منطلق غبائهم الديني الى اعلان حراستهم لمصالح الرب على الأرض، او المفوضون من قبـــل الله لرعاية المصالح – على حدّ تعبير لويس الرابع عشر – البشرية على الأرض، في سبـــيل تقويم السلوك، والارتقاء بالفكر. فهذا محرّم، وهذا محلل ليس لأن الدين يحلل هذا، ويحرم ذلك، بل لأنني – أعني الأنا – ومن منطلق تألهي الاجتماعي اريد ان اثبتَ

وجودي ، عن طريق اثباتي لقوة دينيتي وتفهمي لمضامينها اكثر من ذاك- اعني الآخر- لهذا اشرع في التحليل والتحريم من منظور ذاتي ، وليس من منظور ديني بحت.

ومن هذا المنطلق، يشرع الكثيرون- اذا ما شعروا بنقص ما- الى التدثر بعباءة الدين لتقيهم برد الشتاء، وحرّ الصيف، ولتحميهم من عقدة النقص الديني والاجتماعي، في محاولة- في الوقت ذاته- الى نفض الغبار عن السلوك الاجتماعي العفن الذي ابتعد عن"رحم الدين".

هكذا يعتقدون، واي اعتقاد يعتقدون؟ المرأة عورة، وتعلمها عورة، تمردها على العقلية الرجولية العفنة عورة، تفاهمها مع زوجها عورة، واقامة مؤسسة وحدوية بين الزوج وزوجته عورة.

وكذلك الحرية عورة، فحقوق الزوجة عورة، وحقوق الاولاد عورة استقلالية الابن عن الاب عورة.

كل شيء – من منظور المتدثرين تدثراً مصطنعاً بعباءة الدين – عورة عورة حرام

، والحرام عار في الدنيا، وخزي في الاخرة كل شي من وجهة نظرهم عورة الا ما لا يعتبرونه عورة فليس مهماً ان اقهر زوجتي، واغتصب حقوقها، وأعلن مجزرة على جسدها، لأني أصلي، اية صلاة هذه؟

لا شك انها صلاة عفاريت!

ليس مهماً – ايضاً- ان اصادر حرية البنت والولد، لأن الطاعة واجبة، هكذا ذكرني "سماحة الشيخ..." عندما كان على المنبر يرينا اسنانه العفنة، ويعرض لقوة دينيته المغلوطة، ليس مهماً ان اتهم "طه حسين" – على سبيل

المثال – بالجاسوسية الفكرية للغرب، لأن شيخي في تقويم سـلوكي – الذي بـلغ مبلغاً عظيماً من العلم من وجهة نظر الأنا – أخبرنى بأن طه حسين" عورة. أنا لم أقرأ لطه حسين، لكنه قال، ماذا قال؟ قال ان طه حسين عورة اتقـن الجاسوسـية الفكرية. لماذا قال؟ هكذا اخبروه. أليس هذا تملقاً وتفيهقاً في اقماع الحـديث، كما اخبرنا بذلك سيدنا محـمد ناقـل هذه الأمة – أعني الأمة البشـرية – من دياجير الظلام الى قناديل النور.

أليس هذا عفن فكري في عقول المتملقين او المخفين لنازيتهم تحت عباءة الدين.

انها القـرصنة الاجتماعية التي تتدثر بـغطاء الدين. هي قـرصنة، وهم قراصنة، هي وهم تخبط في العفونة التي مضى عليها امداً بـعيداً وهي تقبـع فى جوف النسق الاجتماعي المريض.

إنه المرض جعل منا مصدقـين لما بـين ايدينا من الأغاليط والزندقـات الاجتماعية والتي اصبحت اعرافاً ونظماً اجتماعية بعد ان ختمت بخاتم الدين. إنه ليس ختم الدين بقدر ما هو ختم قراصنة الدين، او الناقصين دينياً واجتماعياً.

انهم "كلاب الحراسة" التي جندت نفسها بطريقة دغمائية لحراسة ابـواب الحصون الدينية،من منطلق ايمانهم "اللامحدود" وكشفهم لاسرار الدين عن طريق الكرامات والصلوات الصوفية، هذا بـعد ان حـرّفوا المذهب الصوفي، لضعفهم الإيماني، ولتمسكهم بتلابـيب الماضي التليد الذي تعجز "الدهماء" عن مجاراته، وفك لبابه، على اعتبار انهم – اي قراصنة الدين –سـيوف الله المسـلولة – هكذا . يعتقدون – لاقامة الحد الاجتماعي وتقويمه الذي بـعد عن الدين – من منظورهم الشخصي – ويريدون ان يقـوّموه – ايضاً من منظورهم الشـخصي – ويعدّلوه

ويعتقلوه، ليكونوا كحصان طروادة الذي ينقلنا من "المدنس" الى "المقدس".

إنها تعويذة قراصنة الدين المخفين لفاشيتهم الاجتماعية والدينية في سبيل درهم او دينار او اعلان "الأنا" من منطلق ميكافيللي.

واذا لم نعلن قدسية هذه "التعويذة" - لأنها آتية من قبل الرب بحسب منطقهم - فنحن زنادقة في الكفر والفسوق والفجور والعصيان.

غضب في الدنيا يحل بنا ويصيب وارثينا، وخزي في الاخرة مركزة الجحيم، حيث زنادقة الكفر امثال "ابو لهب" و"هتلر" و "هولاكو" و"ريتشارد: قلب الاسد".

إما ان نعلن الولاء للتعويذة او نتهم بالجاسوسية الفكرية او الاجتماعية، او نتهم ببعدنا عن الدين، ولهاثنا وراء الكفر والالحاد.

هكذا يرتأي "انصاف المتعلمين" او قل" - إن شئت- الذين أعلن العلم براءته من هؤلاء الموشحون بوشاح القذارة الفكرية والسلوكية هكذا يرتأي قراصنة الدين، وهكذا يعتقدون!.

واي اعقاد يعتقدون؟ لا اعلم، سوى انه اعتقاد المنخلعين عن الدين، او بالأحرى اعتقاد حفنة من المتشرذمين الذين عشعش الغبن والغباء في عقولهم الحديدية.

التأمل رقم "٥"

بين الخطاب الثقافي والسلوك الاجتماعي

تجيء الثقافة فى مرحلة من مراحل العمر - المرحلة الحرجة الممتدة على طول الوضع الآني - لترتقي بالفرد فكراً وسلوكاً، ولتنقــله من عصور الانغلاق والبهائمية البربرية الى عصور الانضباط والعقلانية المتحضرة.

وتجيء - مرة اخرى - لتعدل او تقوم او تبقى او تنسف فكرة من الفكر او سلوكاً من السلوكيات، أيا كانت هذه الفكرة او هذا السلوك فالفرد ينفرد بالثقافة لأنه "خليفة الله" في أرض الله، وبحـــــــــاجة الى معينات تعينه على إعمار الارض، وتقويمها لصالح بني البشر وينفرد ايضا بالثقافة، لأن معطيات الإنسان - كالفكر مثلاً - ترفض ان تبقى مطبوعة بطبائع العصور البــدائية، او بالأحـــرى يتمرد الإنسان على عالم الحيوانات بفضل ثقافته الواسعة التى تمده بالغذاء الفكري الذي يميزه عن الحيوانات وبهائميتها، في التعامل مع الاشياء، فالإنسان يشترك - على سبيل المثال - مع الحيوان بشيء اســمه "الغرائز" لكن الحـــيوان يتعامل مع هذه "الغرائز" بمنطق بهائمي، اذا جاز التعبير، بيد ان الإنسان - ونتيجة لاكتسابه ثقافة واسعة - يعمل على التعامل مع هذه "الغرائز" بمنطق عقلاني متحـــضر، كتعامله مع "الغريزة الجنسية" أو "غريزة الجوع" أو ..... الخ.

لكن وللأسف - لكنه طبيعي - فإن بني البشر يتفاوتون في اكتسابهم لهذه الثقافة، فمنهم من يبقى على حنينه، للبربرية الحيوانية، وذلك نتيجة لضعف "ثقافته المكتسبة"، ومنهم من يبدأ بالحنين الى العهد الملائكي النزيه، نتيجة لتمرس الثقافة او لتفشيها - بالمعنى المجازي للكلمة - في عقله ونفســه، ولنأخذ مثالاً عل ذلك، وليكن "الغريزة الجنسية".

فالافراد الأقل ثقافة يعمدون الى حيوانيتهم عندما يبدأون التعامل مع هذه "الغريزة"، فمن منطلق منطقهم البربري، لا حرج في ان تمارس هذه "الغريزة" في الازقة والشوارع المظلمة، وعلب الليل"، حيث الكلاب تنبح وتشهق، وتتعدى الى ارتكاب مجزرة رجولية حيوانية على جسد المرأة، حيث قرقعة السيوف المغولية الممزوجة بالرائحة القذرة لمخلفات الشعوب النائية. لا بد ان يحدث هذا الخراب وهذا القحط لأن الفكر خرب نتيجة لبراءة الثقافة منه، ومن اجوائه الدنسة الهمجية، لكن الشأن مختلف لدى الانسان المثقف الذي بلغ مبلغاً لا بأس به من الثقافة، فهو يسعى الى تقنين هذه "الغريزة: وضبطها، والتعامل معها بتعقل، اذ يعمد الى ممارسة سلوكه الجنسي بعيداً عن البربرية، عن طريق حفظ الذات التي ترتبط برباط مقدس بالمؤسسة الزوجية التي تجمع بين الرجل والمرأة ضمن معطيات عقلانية خيرة، لتكوين مؤسسة سليمة تساهم في ضبط السلوك الاجتماعي.

المنطق يصبح معكوساً ساعة تعري الانسان من رداء الثقافة، فهو بالضرورة يسلك سلوكاً حيوانياً، من منطلق عدم التفريق بين الانسان والحيوان، الا بالعملية الفكرية التي تغذيها الثقافة، وتزودها بالسعرات الحرارية الفكرية التي تعمل على صقل السلوك وتقنينه، ضمن منطق بشري جميل يساعد على تقويم السلوك الاجتماعي ككل، والذي يؤدي بدوره الى صلاح المجتمع، وبعثه للحياة من جديد، بعد ان كان ممسكاً ومتمسكاً بتلابيب البربرية الحيوانية.

اذن وبناء على ما سبق نصل الى منطق يقول: بالضرورة تساهم الثقافة في تحسين السلوك الاجتماعي، وتوظيبه التوظيب الأمثل من اجل تحقيق نقلة نوعية تعلن فيها البشرية انفصالها او بالاحرى تحررها من ربقة العصر المطحون،

وانضمامها بالتالي الى العقلانية البشرية، بمعناها المتحضر. بتعبير اخر، تلعب الثقافة دوراً متناهي العنف في نقل السلوك الاجتماعي من "عفن" البــهائمية الى "بنسلين" الحضارة.

التأمل رقم "٦"

معقولية اللامعقول

الجزء الأول: هدم البناء

ان هذه الطقوسية الرهيبة التي تفرضها الثقافة الاقوى على الثقافة الاقل شأناً، تشكل معتقلاً مظلماً يتمركز في جوف معبد خالٍ من القناديل والشموع وأعياد الميلاد، وفي الوقت ذاته تفوح منه رائحة الخزي والعار واللامعقول.

لكن الحاصل هو تحميل هذا الخزي والعار على محمل الحب والجمال والرقي، مثلما يحمل اللامعقول على محمل المعقول. ليصير الخزي والعار حباً وجمالاً، واللامعقول معقولاً. يورّد الى شعوب العالم الأقل حظاً، ولا مناص من قبوله. طوعاً وكرهاً– لاسباب سياسية او اقتصادية او عسكرية .... الخ.

ان هذا الفوران اللامعقول – المحمول في الوقت ذاته على محمل المعقول – المتمثل بالاختراقات الثقافية، استحدث من اجل – بعيداً عن كل الاسباب الأخرى – (أدلجة) العقل العالمي بالايدلوجية الاقوى – الرأسمالية ههنا– في محاولة للهجوم على اطلاله الباقية له من اجل تعميرها او بالاحرى تدجينها ضمن ما ترتأيه عساكر (الأدلجة).

بتعبير اخر، حملات الاختراقات الثقافية تسعى الى تهجين عقل "الآخر" ليكون صالحاً لتطعيمه بافكار الايدلويجية الرأسمالية من اجل إحكام السيطرة عليه–اي على عقل "الآخر" ليكون امتداداً لعقل "الأنا" او بالأحرى يصير عقل "الآخر" فرعاً تمفصل عن عقل "الأنا" يعلن على اثره عقل "الآخر" فروض الطاعة لعقل "الأنا" ولا يجوز له في الوقت ذاته – اي لعقل الآخر – ان يتخذ قراراً سيادياً– كامتلاك اسلحة نووية – دون موافقة عقل "الأنا" من منطلق الضعف الجيني في خلايا

الفرع – اي عقل الآخر – المستنسخ عن "الاصل" – اي عقل الأنا – السليم جينياً.

وعلى اثر هذا دمغ عقل "الآخر"، بدمغة رديئة جعلته يبتعد عن المعقـول، ويرفضه، وبشغف يطلب اللامعقول ويلهث خلفه لهاثاً مهلكاً، كابتعاده عن الحـق والمنطق العقلاني، والاهداف الكبرى لهذه الحياة، وسعيه الدؤوب نحو الارهابية والانفتاح الجنسي وتذكير الاناث وتأنيث الذكور، وتقليد " الأنا" واجترار مضامينه المخزية بالتالي.

فعقل "الآخر" يسعى الى صقل ذاته على شاكلة عقل "الأنا" بغض النظر عن شرعية منطقـه او دغمائيته، لأن عقـل "الأنا" اخترق عقـل "الآخر" واستبـاح محارمه، وتركه يعيش في حالة من الضبابية السوداء. صار على اثرها بحـاجة الى نور "الأنا" وقـناديله. خوفاً على نفســه من كلاب الليل الضالة، بـيد ان الاختراقات الثقافية يرفضها الحس الانساني السـليم ويقـذف بـها خارج نصه، لاستنادها على اسس غير معقـولة واعتمادها على ادوات ووسـائل محـرمة – كغسيل المخ والحرب النفسية وقصف العقل – في تحقيق غايتها، الا ان الحاصل – في عصر العولمة – هو ايجاد تبريرات لهذه الاسس اللامعقولة. لجعلها معقولة يستسيغها العقل والمنطق. ولا تعود مرفوضة من قبل "الآخر"كتبـرير الاختراق الثقافي لثقافة من الثقافات بأصوليتها –أي الثقـافة المخترقـة–ورجعيتها، وعدم تمكنها من الوقوف على قـدميها في ظل العولمة والانفتاح الاقـتصادي والتدفق الحر للمعلومات. ولهذا لا بـد من اعلان وصاية الثقـافة "أ" – أي الأنا– الثقـافة الأقوى والأرقى على الثقافة "ب" – أي الآخر" الأقل شأناً. لتعمل الثقافة "أ" بالتالي على نقل الثقافة "ب" من ثقافة اصولية ورجعية الى ثقافة "متحضرنة" قـادرة على الاعتماد على نفسها في ظل مفاهيم كالعولمة وغزو الفضاء.

وكنتيجة لهذه الاختراقات المبررة، ترديت الصياغات الثقافية (المأدلجة) لأنفصالها - بادئ ذي بدء- عن كينونتها، وابتعادها عن محورها الذي كانت تتمركز حوله وقت نشأتها. فحصل ان تردى المشهد الثقافي، واصبح على درجة من الوهن والضعف، الى درجة اصبح معها يرحب بالانضمام الى ركب المتعولمين، ليس لأنه يريد أن ينفتح على العالم من منطلق قوي، ليستفيد من نتاجات الثقافات الأخرى، بل لأنه - أي المشهد الثقافي - مجروح، ويحاول أن يعالج الجرح بجرح آخر، فبدل ان يعتمد على نفسه في صناعة ثقافية جديدة، فإنه يسعى إلى الثقافات الاخرى ونتاجاتها من اجل معالجة نزيفه الثقافي.

وهذه هي الطامة الكبرى وقمة اللامعقول، اذ يتم اقناع شعب من الشعوب بأن ثقافته قادرة على صياغة مشهدها الثقافي، وهي في الأصل تستمد مشهدها الثقافي من ثقافة اخرى، أعتقد انها -هذه الأخيرة- الثقافة الطاغية على المشهد الثقافي العالمي، والأرقى في ذات الوقت.

ومن هذا الاعتقاد تتمفصل قيم ثقافية جديدة تخترق الثقافة الأم ترعاها-اي ترعى القيم الجديدة- وتحرسها عناية المطبّعون سياسياً بعد ان تم تطبيعهم ثقافياً. فهؤلاء المطبعين يعملون على تحميل هذا اللامعقول على محمل المعقول. اي يحملون القيم الثقافية الجديدة على محمل الانتاج الثقافي الجديد الذي ابدعته عبقرية الثقافة الأم، وتحمل ايضاً على محمل الرقي والتقدم والانفتاح ومواكبة التطور العالمي.

لكنهم اي المطبعون ايدلوجياً بالاحرى يرفضون الاعتراف بتحميل هذه القيم علي محمل الانصياع والانخلاع والتشرذم والانفصام واجهاض الثقافة الام، وغيرها من المصطلحات التي تنذر بخطر بربري، واقتحام تعسفي للثقافة الأم.

الجزء الثاني: الهدم من اجل البناء

ليست- على الدوام- نظرة تشاؤمية، نظرتنا الى اللامعقول، من منطلق ان اللامعقول- خصوصاً في عصر العولمة- معقولا، والمعقول ليس معقولا. وهذا الاخير هو المعقـول الصحـيح لأنه صالح وفرعه صالح. لكن المتلاعبـين او بالاحرى المشتغلين على جبهة التحريف عملوا على زحزحـة هذه الاشـكالية، وتحويلها الى منطق سليم يتمخض عنه مفاهيم جديدة تعترف بمعقولية اللامعقول، وترفض- في الوقت ذاته- لا معقولية المعقول. وتصبح هذه المفاهيم قانونا ملزماً لكل العقليةالبشرية، علىوجه الجملة.

وكل من يحاول الطعن بهذه المفاهيم، فهو اصولي ورجعي متمسك بعقلية بربـرية يبقـر بـطنه وتلفظ مكنوناته الى بحـيرات التماسـيح، وتفرض عليه الحصارات، وتحاك ضده المؤامرات ليبقى خارج النص الحـضاري، ينظر اليه بعين الازدراء والاحتقار.

انها المؤامرة الدنيئة التي حاكتها"الايدي القـذرة"- من منظور معقـول- والايدي الطاهرة النقية، من منظور غير المعقول- ليبقى النص الثقـافي "للأنا"- بالمعنى المعطى هنا- نصا هامشيا مبتوراً، تتقاذفه مياه البحيرات القـذرة التي لا يعيش فيها شيء سوى الجراثيم والحشرات والنصوص الهامشية التي تنتج اشباه مثقفين، وانصاف متعلمين، وبالتالي انتاج مشهد ثقافي بقدر ما هو"تراجيدي" بقدر ما هو مزر ومسل وقبيح.

انها الأيدي المخربـة التي تحرسـها ذئاب الظلام التي آمنت بالقـوة الرصاصية للكلمات، ومن منطلق ايمانها اخذت برشق ثقافة "الآخر" بقوتها وبقوة فكرتها، واقناعه - أي الآخر- بمدى تطور هذه الفكرة -رغم دغمائيتها- وتقدمها

ومواكبتها للتدفق العلمي والمعرفي.

انها النرجسية الثقافية التي تسعى الى تأليه ذاتها، لتعلن بالتالي باقي الثقافات تربيب هذه النرجسية. ليبقى هناك- على الدوام- اسياد وعبيد، مطبعين ومطبعين ليبقى هناك "ساديون"و "مازوخيون". ساديون يتلذذون بايقاع البهتان على"الآخر". ومازوخيون يتلذذون بوقوع هذا البهتان عليهم. ليس لأن طبائعهم تحب او تحبذ هذا البهتان. بل لأنهم طبعوا على هذا التلذذ الى درجة تحبيذه، والعمل على تطبيقه.

وهذا بحد ذاته خرق للمعقول المنطقي، وتصعيد للامعقول الدغمائي الذي يروض النفوس، ويدجّن العقول، ويستبيح منطقه المعقول، ويفتح على جبهتها مجزرة فكرية (تؤدلج) العقل بفكرة واحدة، هي فكرة الانخلاع عن المعقول، والاندماج بالتالي مع اللامعقول.

لهذا كان القائمون على نشر فكرة اللامعقول، يعملون على تحقيق غايتهم بوسائل ميكانيكية. لكنهم انتبهوا الى حدوث خلل في "استراتيجيتهم" نتيجة لضعف "تكتيكهم" الميكانيكي. فعمدوا الى الوسائل النفسية والفكرية التي تسعى الى تطويع الفكر وتهذيب – بالمعنى البربري للكلمة – النفس، للتوصل الى تقنين السلوك – حسبما خطط القائمون على ذلك – واستعمار النفس في محاولة لمنع حدوث أي خلل أو ضعف في الاستراتيجية الدغمائية اللامعقولة التي تسعى دوماً الى لفظ عوادمها الايدلوجية والسلوكية، ونتاجاتها الثقافية الى شعوب العالم النائي المعدم الذي يعيش في البقاع الخربة التي تعاني من انكماش دائم في مواردها وكوادرها، نتيجة لضعفها الحضاري، وانخلاع نصها الثقافي المتمفصل عن فكرته، ونسيانها لحاجاتها النفسية والروحية، وسعيها نحو او بالاحرى تطلعها نحو "تقليد" حضارة "الآخر" الاكثر رقياً وتطوراً وانفتاحاً.

الجزء الثالث: انتحار المشهد الثقافي

إنها الغاية التي جندت من اجلها كل الوسائل المحللة والمحرمة من منطلق "ميكافيللي" الغاية تبرر الوسيلة، في سبيل احداث اضطراب نفسي سوداوي، يدفع المشهد الثقافي الى الانتحار، قد يكون انتحاراً ايجابياً على طريقة "دوركايم" في الانتحار، او ربما يكون انتحار في سبيل المحبة، والمحافظة على الثقافة الأكثر رقياً وطغياناً.

هذا ويحدث تشويش في العقل المفكر للأمة عندما تقتحمه الثقافات الدخيلة عن طريق حملات الغزو الثقافي او عن طريق البعثات التعليمية، فالأولى – أي الغزو الثقافي– تستهدف النخبة المفكرة او العقل المفكر للأمة، قبل استهدافها للدهماء. لان استهداف النخبة المفكرة يعني استهداف القوى الثقافية والسياسيةو الاقتصادية وكل من يساهم في صناعة المشهد الثقافي.

ويعني استهداف النخب– ايضاً– استهداف العقل الكلي للأمة، بصفتهم قادة رأي لهم تأثيرهم وكارزميتهم على افراد المجتمع. لهذا يعتبر استهدافهم استهدافاً للكل، اما الثانية– اعني البعثات التعليمية– فتستهدف النخب التي تم تطبيعها بثقافة ما غير الثقافة الأم. فهذه النخب تشكل مادة دسمة– بالنسبة للآخر– اذا ما تم التأثير عليها لأنها ستعمل على نشر ثقافة "الآخر". اذا ما عادت الى موطنها وهي محملة بالقيم الثقافية الدخيلة بالنسبة للثقافة الأم.

وهنا يحدث موقفاً سوداوياً بالنسبة للمشهد الثقافي، اذا تعمد هذه النخب الى وضع حلول لمشاكل الثقافة الأم بناءً على خبراتها السابقة التي تعلمتها من ثقافة "الآخر" وفى هذا خلخلة للمشهد الثقافي اذ يصبح هناك انفصام بين"ماضيه" وبين "غده" "فماضيه" من ذاته و"غده" من ذات غيره. اذ ان من يضع "غداً للأنا" يكون

جاهلاً "بماضي الأنا". فمحاولة وضع حلول مستقبلية- على سبيل المثال- للوضع الثقافى العربى- من قبل النخب خريجة المدرسة الألمانية على سبيل المثال- بناءً على خبرات المانية يصيب المشهد الثقافي بحالة من الشيزوفيرينيا"الانفصام"تمفصلت عن تشرذم بين "الماضى" وبين "الغد" لأن خريجي المانيا- على سبيل المثال لا الحصر- خبراتهم الماضوية ألمانية وليست عربية، ومن هنا ينتج الخلل السوداوي.

هذا بالاضافة الى ما قد تفرضه النخب السياسية والثقافية والصحفية والاقتصادية، وغيرها، من قيم ثقافية مستوردة على المشهد الثقافي الأم. فتضعه في خانة الحرج الثقافي. اذ يصبح غير قادر علىتشكيل ذاته، فيشعر بالنقص الوجودي، مما يدفعه الى تبديد هذا النقص، بتنحيه نفسه عن ابداع صياغات ثقافية جديدة تجعله معتمداً بالتالي على ثقافة"الآخر" في اعلان ذاته وتحقيق وجوده.

من هنا يتضح لنا بأن المشهد الثقافي يعانى من حالة تدعى"الانتحار الثقافي" ساعة اعتماده اعتماداً كلياً على القيم الثقافية الأخرى في بلورة ذاته، ومسيرته في الركب الثقافي على المركب الثقافي الخاص"بالآخر". لأن مركبه الثقافي- اي المركب الثقافي "للأنا"- يعاني من ثقب في مخه المفكر. فهو ليس قادراً بالتالي على حمله- اي حمل المشهد الثقافى- على محمله ونقله الى الميدان الحضاري، الذي يخلّد الثقافات التي تعقدت وتطورت وساهمت في اضافة معان جديدة الى بني البشر، وساعدتهم وتساعدهم في الانتقال من"الآن" الى"الآن" المستقبلية الافضل والارقى.

الجزء الرابع: دعوة الى الانفلات والتشكّل بالتالي

لن نستطيع ان ننفلت من القوى التي ننجذب نحوها الا اذا توغلنا وتقمصنا نفسية تلك القوى وعقليتها. فبادئ ذي بدء نحن مدعوون الى تقمص"الآخر" لنتمكن من دراسته بمنطق عقلاني يمكّننا من معرفة مواطن قوته ونقـاط ضعفه. لنعمل بالتالي على التحرر من هيمنات "الآخر " التي استباحت محارم مشـهدنا الثقـافي وساقته الىمقابض الجلاد التي حكمت عليه بالانطمار والاندثار والانتحـار. لكي لاتقوم له قائمة بين الامم والشعوب. لكن السؤال المطروح، كيف لنا ان نتقـمص "الآخر" ونتوغل في عقليته؟

اولاً: مدعوون الى الاطلاع على تراث "الآخر" وثقافته، ونتاجاته الفكرية والادبية، لنتمكن من قـراءة افكاره، ومعرفة الوضعية التي يتشـكل منها عقـل "الآخر" ليصار بالتالي الى وضع فلسفة جديدة يحـدد بموجبـها كيفية التعامل مع "الآخر" ومع نتاجاته.

ثانياً: التعامل بحذر شديد مع بعض النظريات والافكار والفلسـفات التي تورد الينا، سواء نقلت الينا عن طريق النخب او قادة الرأي او الوسائل الاعلامية المختلفة فهذه الافكار يمكن ان تحدث بلبلة اثناء صياغة المشـهد الثقـافي، اذا ما تعومل معها بعشـوائية، او بـمنطق ضعيف، كما يتم التعامل – الآن – مع فكرة "عولمة اللغة"، اذ يتم التعامل مع هذه الفكرة بمنطق ناقـص وضعيف، يعاني من ضعف في رؤية الاهداف التخريبـية لهذه الفكرة ولكل الافكار التي هي على شاكلتها.

ثالثاً: التحرر من الافكار السوداوية التي تسيطر على "الأنا" وتعيشـه في جو من الظلمات، كفكرة رقي الرجل الابيض، وتخلف باقي الشعوب، فهذه الفكرة – على الرغم من بساطتها – جعلت"الأنا" يؤمن بضعفه، وفي المقابل يؤمن بقوة

"الآخر" وقدرته على قـيادة نفســه وقـيادة "الآخر"– اي الأنا ههنا– من منطلق قواه المتحضرة عقلياً وميكانيكياً.

لهذا فدعوة من هذا القبيل تجعل من "الأنا" قوة منافسة "للآخر"تؤمن بنفسها وقدرتها على تحقيق ذاتها، وصقل شخصيتها، وبلورة مشهدها الثقافي بـعيداً عن تطفلات"الآخر" وتراتيله.

قد تكون هذه الاشياء– بالاضافة الى ملايين الاشـياء الاخرى–"التعويذة "الانسب للتحرر من القوة الشيطانية التي استباحت قـوة"الآخر" وتركتها اشـلاء يزور اطلالها– بين الحين والآخر– عفريت من عفاريت الانس ليدوسها بقـدميه القذرتين لتبقى على الدوام محفوفة بالقوة العفريتية التي لا تعرف الا الخراب.

ربما هذه الاشياء تمثل"تعويذة" مناسبة تحمينا من الشر وتدفعنا في الوقـت ذاته الى تشكيل مشهدنا الثقافي من جديد، يستند على الايدلوجيا الربـانية– اعني الاسلام– لتدعيم كيانه، انطلاقاً من تطور وتقـدم الايدلوجيا الربـانية، وضمور وتخلّق الايدلوجيا الوضعية. على اعتبار انها– اي الفكرة الربانية – تعتبر ميداناً كل مكوناته معقولة محمولة على محمل المعقول المنطقـي السـليم، على عكس الايدلوجيا الوضعية اللامعقولة التي تحاول اقـناع "الآخر" بمنطقـها المسـتور المراوغ.

اذن الدعوة موجهة الى التوحد مع الفكرة الاسلامية، لأنها الفكرة الحقـة، ولا سبيل – إن عاجلاً أم آجلاً– الى الصمود وتحقيق الذات، ومواكبـة التطورات المعرفية والعلمية، الا اذا تسلحنا بمنطق صحيح متمخض عن فكرة حقة سـالمة جينياً.

الفصل الثالث

بين "الآن" و"الآن" ضمن معطيات " الآني"

"لماذا أنا هنا؟"

"ان الجواب الذي طالما اعطاه حكماء العالم هو اننا هنا لنكمل انفسنا لننمو في المقدرة على الحياة، وعلى العمل التعاوني البناء نحن والاخرون"

أدغر دايل

الروح نفحة من ذات الله

اللامتناهي بـعلم الله اللامتناهي متناهي بـعلم الانســان المتناهي، لكن المتناهي البشري قد يلج الى "اللامتناهي" بمجرد إعمال التفكير جرعة اضافية عما تعود عليه افراد النسق الاجتماعي، وهذا "اللامتناهي" البشري لا يعني تعدياً على "اللاتناهي"الإلهي، لأنه "لا تناهي " متناهي.

واننا كبشر نؤمن عل الاطلاق بــ "لا متناهي" في جوهره متناهي– مع تحفظ البعض بعدم الاقتناع بالمتناهي وسعيهم الدؤوب نحو "اللامتناهي"على الرغم من ان تحــفظهم هذا في جوهره ليس الا تمركزاً حــول الذات، لأن الله المتفرد بربوبته يعلم بعلمه السرمدي الأزلي، ان هناك شاطحون يسعون الى"اللامتناهي" في ذات اللحظة التي يتقوقعون فيها.

وهذا الايمان العميق باضمحــلال اللامتناهي وتحــوله الى متناهي ضمن المعطيات البشرية كان قد ترسخ في صميمناعبر هذا المد الرباني المتجلي علينا في اشد صحواتنا الفكرية الراقية المتشكلةعبـر سلسـلة من الاندفاعات المزلزلة لعمقنا.

لذلك جاء هذا الاندفاع المعقــلن والمتجســد في ماهيتنا ليجعلنا ننفلت من عقال التقوقع المتناهي الىعالم الروح"اللامتناهي" في محاولة منا لايجاد تفسـير ولو على المستوى التجريدي لهذا اللغز الرباني الذي انحنى امام عظمته كل العقل البشري عبرتاريخه الماضوي والحاضري والمستقبلي، وسيبقى الانحناء بحــالة صمت الى ان تفيء البشرية الىوضعها التالي.

وهكذا ليس بامكاننا بادئ ذي بدء ان نوجه اتهاماً الى روح الانسان كروح لا يعرف كنهها ومكنونها ومضامينها الا الله الآمر الناهى، لكننا نستطيع ان نوجه

اتهاماً الى سلوك الانسان كمجرم اوسفاح اومرابي...الخ.

وانطلاقاً من هذا التوجه لسنا بصدد الحديث عن"لب الروح" او"ضمير الروح" لأن هذه الأمور ليس لنا عليها سلطان ولسنا مؤهلين بخوارق او معجزات لنخترق حواجز (الـ ما وراء) وحواجز "اللامتناهي" لنتمكن من سبر اغوار الروح والسيطرة عليها لدراستها والحديث عنها، لكنا نود الحديث عن"ظاهرية الروح" كمعلم من معالم تجليات الله على بني البشر.

بداية الروح- كمعطى رباني- من اجلّ واعظم الاشياء في هذا الكون المدرك وغير المدرك من قبل الانسان، لأن هذه الروح آتية من قبل الواحد الأحد. فالروح"نصاً وروحاً" "موضوعاً ومضموناً" ما هي الا قبساً بسيطاً من نور الله المتفرد المتعالي.

والانسان كروح متمرسة على الاضطلاع بما يتماشى مع هذا القبس الرباني، هو انسان جدير بالتقدير والاجلال من قبل بني البشر وموجد بني البشر، لأن الانسان اذا عمل على تغذية هذه الروح بما ينسجم مع اصالتها الربانية فما هو إلا محترم وملتزم بإرادة الله، الذي كرمه ان منحه هذه الروح التي تجعل الانسان اجل شأناً من الملائكة، اذا ما احترم هذه الروح وبجلها.

واحترام الانسان لهذه الروح لا يتأتى الا بنقاء الفكر والسلوك المتمخض عن الفطرة السليمة غير المتلاعب بنقائها من البيئة المحيطة والمتمثلة بممارسات واعية وغير واعية تؤدي الى الاضرار بنقاء الفكر والسلوك مما يترتب على ذلك شلل روحي، يصيب الانسان كتفكير وسلوك، لكن هذا الشلل وان اطلقنا تعسفاً عليه شللاً الا انه غير قادر على الوصول الى الروح كروح لأنه اصلاً غير مؤهل للتعرف عن كثب على هذه الهبة الربانية المتناهية بعلم الانسان المتقوقع التفكير.

(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) (الاسراء : ٨٥)

هذا النص الرباني يبين ان لا طاقة لنا على الالمام بــ "ضمير الروح" مما يحتم علينا ان نؤمن بهذه الروح على انها شيء مقــدس آت من قبــل الله المتفرد بألوهيته في هذا الكون "اللامتناهي". ويحـــتم علينا ان لا نكون اغبــياء لدرجة ان نصدّق ما يحكيه لنا بعض المهرطقين من ان الروح "ذبابة" او انها "النفس"، وغير ذلك من هذه الهرطقات المعلبــة بــالتزييف والتدجيل، لا هم لها ســوى اشــهار اصحابها المدعين الفكر والتفلسف.

ولست في مقالي هذا أريد أن استنبط شيئاً جديداً في امر مبتوت فيه من قبل الله الرحمن الرحيم، ولست في ذات الوقت اريد ان انغلق في حلقــة مفرغة مليئة باحاديث واقاصيص مغلفة ومزيفة.

لكن ما ينبغي ايصاله هو ان نقــف عصاة عتاة في وجه هذه الهرطقــات الفكرية التي تدعي سبر اغوار الروح ومعرفة نواميسها، وان نكون متيقظين لهذه الهرطقــات ومثيلاتها التي قــد تقــــودنا الى متاهات لا مدارات لها، تدفعنا الى تفسيرات ليس لها صلة بــ"لب الروح" لا من قريب او بعيد الا للذين ينظرون لهذه التفســيرات على انها الهامية خارقــة لنواميس "الزمكان" يتحــتم على الاخرين الاقتناع بها وشحن عقولهم بها.

ومن هنا يظهر عجز الانسان- مستخدماً كل اسلحته العقلية- في الحديث عن الجانب الماهوي من الروح. وحتى وان تحدث عن باطنية الروح ذات المجال الرباني فانه يكون قد مارس تمرداً ضد جوهره كعقل ونفس- لأنها اصلاً لا طاقة لها على الشطحان الوجودي والحديث بالتالي عن اشــياء جعلتها "الذات الإلهية" مجالاً محرماً او خطاً احمراً، لا يحــق لأي كان ان يتعداه او حــتى الوصول الى بداياته، لتبقى الألغاز الإلهية محيرة لأفكار العقل البشري ومانعة له من الوصول الى "الذات الإلهية"، وسادة عليه الطريق منذ البداية على اعتبار ان البداية بداية

البداية بداية النهاية و النهاية نهاية البــداية.لكن البــعض و انطلاقــاً من ايمانهم القوي بعفريتيتهم وقدرتهم على ثقب المجهول و اعلانهم لألوهية عقولهم، وجدوا انفسهم يتحدثون عن الروح وما هويتها – مشافهة او مكاتبــة– للوصول بــالتالي الى "الذات الإلهية" ليس من منطلق خرق افكارهم للمجهول، بــل من منطلق المنطق القائل بضرورة البحث– للعقــل البشــري– عن مزيد من التأله، خلا ان "التعفرت العقلي" لا يلبث ان يتبــدد ســاعة اخضاع معطيات الروح الى المضمون العقلي الراقي المدعم بالنصوص الموحــى بــها من قبــل الموجه لنواميس الكون، فتتشكل بالتالى قناعات راسخة تؤمن بأن"الضمير الروحــي" و "اللب الروحي" امر لا نستطيع البت فيه، لأننا كبشر نفكر تصطدم افكارنا– مهما بلغت رقيا او شطحا– بجدار المتناهي المرســوم لنا من قبــل القــدوس المتفرد بوحدانيته. (وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً) (الاسراء: ٨٥)

فهذا النص الرباني يجعلنا نؤمن على الاطلاق– اذا ما ربــطناه بــالنص الرباني ســالف الذكر بــاننا فعلاً غير مؤهلين للحــديث عن مكنونات الضمير الروحي.وبناء على هذا يصبح مصطلح الروح من المصطلحــات "اللامتناهية" التي عجز العقل البشري عن فهمها و احاطتها بعنايته، مما شــكلت على الدوام– على طول الزمان– فارقاً واضحاً بين العقل البشري بمعطياته المتناهية، مقارنة بالذات الالهية بقدراتها ومعطياتها"اللامتناهية" الخارقة للزمان و المكان و الثاقبة لكل شيء – كبــر ام صغر – في هذا الكون (المتناهي اللامتناهي)، و الحارســة للمصطلحات الرهيبة"كالعقل" و"الروح"و "النفس و"الذات"، وغيرهامن الامور– التي تسبب نزيفاً في المضامين العقلية، اذا ما اشتغل العقل على جبهتها– لتبقــى هذه الامور ومثيلاتها علامات فارقة بين"النفس الانسانية" و"الذات الإلهية".

كل الصياغات الوضعية- أعني التي صيغت من قبل بني البشر التي صاغتها العقلية البشرية على امتدادها وهي في وضعيتها الدنيوية، أعني من آدم عليه السلام الى ان تلقى البشرية خالقها ومنشئها مع نهاية"الوضع الآني" هي صياغات تعاني من الانفصام "الشيزوفيرينيا". فالنقص ملازم لها، والكمال ممتنع عنها، انسجاماً مع طبائع البشر الرافضة أو بالأحرى المعلنة ضعفها أمام كمالية "الذات الإلهية "، والراضية في ذات الوقت- طوعاً وكرهاً- بنصيب قليل من المخ البشري المتقوقع في صندوق الجمجمة.

ونتيجة لتقوقع المخ البشــري داخل الجمجمة، كان لا بــد ان تعاني كل الصياغات المتمفصلة عنه من"الشيزوفيرينيا" ولا بد - ايضاً- من اشكاليات في التنظير، لعدم القدرة على سبر غور الذات، والالمام بكل تفاصيلها، لأنه اصلاً- اي المخ البشــري- لم تفهم كل تفاصيله- رغم فهم بــعضها، فكيف يفهم الذات الاخرى بشكلها المطلق- اعني العقل كمتعال- والتنظير لها بالتالي بــأيدلوجية طوباوية تعكس فهما متحضراً للذات بمعناها المطلق، حيث اصبحت قادرة على التنظير لكل الذات بمعناها المجسد، ولم تعد بحــاجة الى إعلان عبــوديتها الى جاذبية القوة الجمجمية.

لكن الحاصل مع فك اشكالية الزمان-هو العكس، حيث إعلان النقــص، والانتماء للقوى الجمجمية، والاشكاليات بالتالي في الصياغات التي ينتجها المخ البشري، ابتداء -جدلاً- بالخرافات والاساطير، والنظريات الفلسفية، والعقــائد الوضعية، والبراهين المنطقية، وانتهاء -فرضاً- بالقوانين العلمية الصارمة

لهذا كله-وبالأحـــــرى-نتيجة للشـــــيزوفيرينيا التي عانت منها كل الأيدلوجيات الوضعية- جاءت الرســالة الســماوية الاسمى(الاســلام). لتخرج البشرية من سباتها الروحي والفكري بــعد الركود الذي اســتمر مدة من الزمان، وكان من الممكن ان يستمر الى ساعة انتهاء "الوضع الآني".

لكن العناية الإلهية كانت تتدخل في أوقات بعينها-لحكمة سرمدية في علم الله السرمدي-الى ان جاء التدخل الإلهي بالفكرة الاسلامية بـصيغتها النهائية في النص القرآني والحديث الصحيح. بلغة اخرى، نتيجة للنقــص الملازم للطبــيعة البشرية، ونتيجة لعجز العقـــلية البشـــرية عن انتاج أيديولوجية متكاملة شــاملة وصالحـــة لكل بـــني البشـــر في اي مكان واي زمان. نتيجة لهذا كان لا بـــد من ايديولوجية- بالمعنى المتعالي للكلمة- تصيغها الحكمة الإلهية على شكل رســالة سماوية، نقلت عن طريق الوحي الى الارض، وبالذات الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليعمل بدوره على نشـــرها وتعميمها على كل بـــني البشـــر، لتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، لصلاحيتها وديمومتها ومرونتها، وعدم حكرها على جيل من دون آخر لأن منشـــئ هذه الأيديولوجية بـــمعناها الإلهي هو الله جل جلاله العارف بأمر الطبيعة البشرية، وأمر عقليتها. لهذا جاءت الايدلوجية الاســلامية، ايدلوجية متكاملة في النص القرآني، حتى احاديث سيدنا محـــمد-عليه الســـلام- كانت عبارة عن وحي يوحيه الرب جل في علاه الى ســيدنا محـــمد عن طريق الملك جبريل. لتكون الرسالة الســـماوية الأســـمى متكاملة من جميع الجوانب، لا يشوبها شائبة تتعالى فوق الزمان والمكان، صالحة لكل بني البشر على اختلاف ثقافاتهم وشرائعهم ولغاتهم واجناسهم.. الخ. ومن هنا كان الله الواحد هو المختص الوحيد بصياغة الأيدلوجية الاسلامية مباشرة عن طريق النص القرآني، وبطريقة غير مباشرة عن طريق الحديث الشريف الصحيح.

لهذا صبغت الرسالة الإسلامية بصبغة ربانية مطلقة، وفي ذات الوقت حرم على بنى البشر التعدي على النص الرباني بإضافات جديدة وفبركات فكرية جديدة تضيف شيئاً جديداً للأيدلوجية الاسلامية، لأنها أيدلوجية متكاملة بصبغتها الربانية، وليست بحاجة الى إضافات بشرية ناقصة، لأن إضافة أي نص بشـري الى النص الإلهي يعني تعدياً على الحق الإلهي، يمارسه بني البشـر أثناء إعلانهم الحـاكمية لعقولهم بدلاً من الحاكمية لله. كما فعل مسيلمة الكذاب عندما عمد الى صياغة نص جديد ليكون عوضا عن النص القـرآني وكما فعل بـعض المتطفلين عندما اخذوا بفبركة بعض الاحاديث ونسبها الى ناقل الرسالة السماوية(الاسـلام)، لذلك أوجد العلماء المسلمون نظاماً صارماً لتبويب الاحاديث عرف "بالجرح والتعديل" وقبـل ذلك جاء التحذير الرباني على لسان سيدنا محمد -عليه السلام- عندما قـال: "من كذب علي عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".. ليس لأن الكذب مجرد اقـتراف مدنس حرمته الرسالة السماوية، بل لأنه يمثل تمرداً بشرياً يتمثل بـصياغة جديدة تضاف الى الفكرة الاسلامية بمضامينها الراقية. كما فعل- كما اشـرنا مسبقـاً- بعض المتطفلين من صناع الحديث. الذين أرادوا نسبـتها - أي أحـاديثهم- الى الرسول محمد عليه السلام- أي اضافتها الى الأيدلوجية الاسلامية، على اعتبار أن سيدنا محمد -عليه السلام - ليس الا ناقلاً لهذه الأيدلوجية الراقية.

اذن ومما سبـــق نصل الى ما مفاده ان الكذب الايدلوجى -فيما يخص الأيدلوجية الاسلامية- يعتبر خطأً انطولوجياً يضطلع به بـعض البشـر المؤلهين لعقولهم والمعتقدون بربوبية كذبتهم الأيدلوجية.

وهذا الخطأ يمثل تمرداً بشـرياً ناقـصاً على ملك الملوك العارف بـأمر البشرية، والمنزل عليها رسالة سماوية لإسعادها وتحقـيق رفاهيتها، ونقـلها من دياجير الكذب الأيدلوجي، الى قناديل الحق الإلهي.

برغم خداع الظاهر للناظر، إلا أن كنه الظاهر غير موح بما يوحـــي بـــه الظاهر. أقول هذا لأدلل على عمق الباطن واستبطانه لمفصليات يتمفصل عنها عند انفصالها عن مركزيتها افكار متقلقة ومضطربة تزعزع مسارات العقل البشـــري وتصدع أركانه، وتعيشه في حالة من "اللاارادية" التي يبدأ على اثرها- أي العقل- بهذياناته المتمثلة بســـيطرة مجموعة من الأفكار عليه هي أقـــرب الى حـــكايات الاساطير الخارقـــة، ففي هذه الافكار او بالأحـــرى مع هذه الأفكار يكون العقـــل البشري مازال في مهده، ولم ينتقل بعد الى الخطوة التي تليها أو بالأحـــرى- منعاً للتخبط المعرفي – يعود العقل البشري إلى سالف عهده، حـــيث كان ما يزال يعاني من الشيزوفيرينيا- بالمعنى المعطى للكلمة- ولم يكن قادراً بـــعد الى الجلوس على مائدة المقارعات الفكرية ليدلى بدلوه على شاكلته وهو عقـــل- بـــالمعنى الشـــامل للكلمة- اذ يكون العقل فى حالة من عدم الاستقرار الانطولوجي حيث الاضطراب وعدم القدرةعلى اصدار الأحكام المعقلنة والمتعلقة بمن أنا؟ وما مصيري؟

هذه الاضطرابات المصيرية بقـــدر ما فيها- ظاهريا- قلقـــاً على كينونة الانسان، بقـــدر ما فيها – بـــاطنياً- فائدة لكينونة العقـــل، وانتقـــاله من مراحـــله "اللاإرادية" الى مراحل اخرى يصبح – أي العقـــل – على اثرها أكثر تمرداً على البساطة والسذاجة، الى درجة تقنين شطحاته ساعة سكرات الموت ساعة الاندهاش والانبهار الوجودي، التي لا فكاك منها الا لمن عمل ويعمل وســـيعمل على تفكيك شيفرة العقل. المتمثلة بـــــــ-مرة اخرى- من أنا؟ ولم أنا موجود؟إذ ان تفكيك هذه الشيفرات، وثقب ظلماتها، يكشف عن المستور ويزود كينونة العقـــل بحـــلول ولو تجريدية لمشكلته الوجودية، وتمنحه جرعة كافية من المنطق المعقـــول، تســـاعده على كبح جماح فلتاناته الفكرية التي قد تقوده في كثير من الاحيان الى الانحراف

عن الأهداف الكبرى لهذه الحياة، والتخبط الوجودي بالتالي، والوقوع في شرك المعتقدات والافكار الزائفة التي ما تلبث ان تفكك وجودية الانسان وتشظيها.

ولزحزحة هذه الاشكالية – اشكالية الانحرافات في المنظومة العقلية – كان لا بد للعناية الإلهية من التدخل خشية على مصير الإنسان ووجوده، من أجل الابقاء على العقل البشري ومنعاً لانتحاره. لذلك جاء التدخل الإلهي – لكبح البلبلة الوجودية – عن طريق النصوص الربانية والشرائع السماوية التي تنزلت على الأنبياء والرسل، والتي بينت أن قلق الانسان على وجوده يتلاشى ساعة إيمان الانسان وتيقنه بأنه سيبعث من جديد، وأن مصيره إما الى الجنة او النار. وتجلى تدخل الواحد الأحد للفصل في هذه المعضلة المؤرقة معضلة القلق الوجودي – بالنص القرآني على وجه المطلق، إن لم يكن نصاً فروحاً، وإن لم يكن بظاهرية النص فبكيميائيته الى درجة أصبح فيها النص القرآني – كل النص القرآني – مقنناً لفلتانات العقل، وسادا لثقوبه التى توشك – مع نزع الاعتبارية الزمانية لمنح "توشك" بطاقة خارقة للزمن – أن توقع العقل البشري في حلقة مليئة بالتساؤلات والتهيؤات الهلامية التي تجدب العقل، وتفتح عليه أبواب الإلحاد، والتمرد عى الذات الإلهية، اعتقاداً منه بخرقه للمألوف ورغبة منه في تأليه نفسه، فى محاولة لاستكمال مشروع "مملكة العقل" بعيدا عن تطفلات الماجنين وتوجيهات المصلحين. والتدخل الربوبي في تقنين إلهية العقل، لم تكن من باب التحدي الإلهى للعقل المتأله من منطلق الربوبية المطلقة مقارنة بالعقلانية بالمعنى المتحضر للكلمة – النسبية –بل من باب الرفق به، ومنعا لتخبطه في هذا الوجود، وحتى لا تنخرط البشرية في متاهات لا حصر لها من "اللامتناهى" و "الماوراء" وخرق المجهول وكشف المستور وتحميل اللامعقول على محمل المعقول ليصير اللامنطقي منطقاً يكشف نوامبس الكون، ويثقب أسوار النفس البشرية.

لكن عناية السماء – أعني الرب جل في علاه – ومن منطلق رحمتها اللامتناهية، وضعت قانوناً للحد من القلق الوجودي الذي ينذر بالخطر البربري الذي يداهم العقل البشري ويسحق افكاره، وكان من ابرز القوانين الإلهية التي حددت معلماً من معالم وجودية الانسان.

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات:٥٦)

فهذا القانون الرباني بصيغته المتعالية حدد سبب وجودنا، وأراح العقل البشري من الانخراط بتجاوزات المفكرين، وتألهات الفلاسفة، وغيرها من الافكار الهدامة.

وبعد هذا يجيء القانون الإلهي بصيغة ربانية جديدة تحدد الاتجاه الذي نسير فيه، والى أين نحن ذاهبون، (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) (البقرة: ٢٨)

ثم يحدد الرب جل جلاله مصائرنا من خلال كثير من النصوص القرآنية منها:

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (محمد: ١٢)

وهكذا ومن خلال الاشتغال المتواضع على جبهة النص القرآني، والتعامل بحذر شديد مع معطياته، نتبين على أنه جاء على اعتبار أنه كلام يتعالى فوق الزمان والمكان لمنحنا الاطمئنان الوجودي – حتى ساعة سكرات الموت – الذي يحقق لنا فهماً حقيقياً للمفاهيم الكبرى في هذه الحياة كالسعادة والحق والخير والجمال.

ينطوي الموجود على لغم رهيب تتزعزع لقعقعته وتململه قوى البشـــر، وتصاب بحـــالة من الهوس الجنوني أو التصوفي، يحـــدث على اثرها تشـــظ في المنظومة البشرية المقزمة التي تنطوي على حس عظيم، بعضه متشائم وبـــعضه الآخر متفائل الأول ملهاة والثاني مأساة، الأول مأساة والثاني ملهاة، ربـــما متفائل وكوميدي في ذات الوقت وقد يكون متفائل وتراجيدي في ذات الوقت ذاته.

وهناك احتمالية – ونسبة الاحتمالية عالية – في انشطار التشاؤم الى شقين احدهما تراجيدي والآخر كوميدي، واحتمالية الانشطار قد تلم بالتفاؤل وتشطره الى نصفين: نصف يضحك ونصف ينتحب. وعطفاً على الاحـــتمالية احـــتمالية جديدة في انفجار اللغم وحدوث كارثة مفجعة تلملم على اثرها كل المأساة والملهاة والتفاؤل والتشاؤم التي تقود الى فاجعة حقيقية في فهم الموجود والبحث في كنهه، او محاولة تجريد واقعيته ليصير بالتالي وحدة كلية متعالية، يسعى بنو البشر إليها مستخدمين كل طاقاتهم في التوحد معها، لتنقلهم من هيمنات الواقع الى الفضاءات "اللامحدودة" للتجريد.

والسعي البشـــري في الانتقـــال من الماديات الى المجردات لا بـــد له من اندفاعه فكرية عظيمة جداً، يشارك بها كل العقـــل البشـــري، من أول الزمان الى آخر الزمان، من آدم – عليه السلام – الى آخر فرد – رجل كان أم امرأة – سيعانى من جبروت سكرات الموت.

انها الاندفاعة الفكرية الكبرى التي يسير في ركبـــها كل ما انتجه العقـــل البشري من منتجات مادية ونفســـية وروحـــية، وغيرها من المنتجات الفلســـفية والمعرفية والعلمية. والتاريخ العســـكري والايدلوجي والفلســـفى والاقـــتصادي والاجتماعي .... الخ.

إنها اندفاعة سارت وسار معها الباطنيون والصالحــون والمعدمون والمعقــدون والمتملقــون والمنخدعون والطغاة والاقــنان والملوك والبرابــرة، وكل الجنس البشري على طول الزمان "الآني"، في محاولة لم تكتمل بعد للتحرر من الماديات، والتعامل بالتالي مع المجردات.

انها اندفاعة انزلق فيها العقــل البشـــــري انزلاقـــــات جمة نتيجة لضعفه الانطولوجي، وتمثلت هذه الانزلاقات بالنقص والضعف لكل ما انتجه أي العقـــل من علوم ومعارف وفلسفات وصياغات على المستوى "المادي" و"المجرد" إضافة الى عدم تمكنه من تفسير بعض الظواهر والاشياء التي يوحي ظاهرها المتعارف عليه باستبطانها لمدلولات خفية رهيبة، كالروح والجمال والحــكمة. حــتى وان شرع العقل فى تفسيرها فإن انزلاقه يكون أكثر عنفاً، كتفسيره للروح على سبيل المثال لا الحصر بترجمتها الى اشياء مادية محسوســـة. على الرغم من ان الروح من المجردات التي توحي بخفاء رهيب متسامي، لو كشفت للعقل وهو فى وضعه "الآني" أو لو استطاع كشف مستورها او حقيقتها لانتحر العقل البشري، كل العقل لبشري، دون استثناء، وحادثة "طور سيناء" مثالاً واضحاً على ذلك.

وفي محاولة لتقنين العقل وتقنين انزلاقـــاته، جاء "الوحـــي" ليكون بمثابـــة القانون – وأي قانون– الذي يقنن التخبـــط العقـــلي، ويحـــمي بـــني البشـــر من الانحرافات العقلية التي يترأسها بعض المفكرين والفلاسفة ورجال الحكم والطغاة من الرجال والنساء، والتى تؤدي الى تخلخل في المنظومة الحياتية لبني البشـــر، وتقودهم الى متاهات بربرية تنم عن دغمائية العقل ورجعيته، واحـــتضانه لكلاب لا تجيد الصيد او الحراسة وتسعى بطريقة او بأخرى الى النباح لتثبيـــت وجودها، بناء على "كوجيتو" جديد معادل للكوجيتو الديكارتي "أنا انبح إذن فأنا موجود".

لكن ولحماية البشر من هذا التخلخل، ومن كلاب الليل النابحة جاء "الوحي" بدفقاته الشعورية المتكاملة التي تلجم فلتانات العقل، وتقننها، وتوجهها نحو ما هو خير للعقل ذاته وللبشرية، فقد جاء الوحي – على سبيل المثال– بتوجيهات للعقـل تقنن اشتغاله على بعض الجبهات كجبهة الروح – لان اشـتغال العقـل عل هذه الجبهات، دون الرجوع للقانون الذي جاء به الوحـي تؤدي الى طحـن الافكار، وخراب العقل، وبوار نتائجه.

لكنه –أي العقل – إذا ما استعان بقـوة "الوحـي" فإنه يريح ذاته من عناء التفكير فيما هو وفوق امكاناته وطاقاته، ويسد على نفسه طوفان من التهيؤات التي ترهقه وتضعه في خانة القلق الوجودي، وتدفعه الى تأليه نفسه والرفض بـالتالي لألوهية وحاكمية الله.

وهنا يكون العقل قد مارس بحق ذاته دوراً بربرياً ممزوجاً بطقوس الغباء والتوحد مع الهمجية العقلية، اذ يكون قد وصل الى حالة من "الانتحار الوجودي"، يعجز – أي العقل – على إثرها عن تهيئة نفسه للانتقـال من "الوضع الآني" الى "الوضع التالي".

لكنه يستطيع ان يمنع عن نفسه ذلك الانتحار، بمساعدة قوى "الوحي" التي تشكل اذا ما اجتمعت بقوى العقل – بصيرة ثاقبة تحدد الأولويات اللازمة لتهيئة الفرد في الانتقال نقلة وجودية مضمونة العواقب من "الآني" الى "التالي".

لعنة المفهوم

ان بداية مرحلة من الشك في كل شيء لإثبات كل شيء، تشبه رحلة تقوم بها مريضة بمرض " الشيزوفيرينيا" الى العصور الغابرة لتثبت حقية الآلهة لطقوس رهيبة مقدسة تحفها الذات بزفرات من التنسك والتعبد الخالص، وفي محاولة لاستشعار سرمدية هذه الآلهة وازليتها، والتحقق – في الوقت ذاته– من الفارق العظيم والواضح بين الآلهة والعبيد. الآلهة القادرة على خلق المعجزات، واستحضار المجهول، وصنع الكرامات، والسيطرة على النفس وسبر نواميسها. وفي المقابل العبيد المؤمنون بعظمة الآلهة والطائعون لأوامرها، والكافرون بعدم قدرتها على استعمار نفوسهم ونفعها او الإضرار بها.

البدايات متشابهة الى حد ما، خلا أنها تنطوي – أعني رحلة الشك–على مخاطرة كبرى قد تقود الى اليقين الجزئي او السوداوية.

فرحلة الشك في الشيء لاثباته تنطوي على شك هي ايضا، لأن فهمنا للشك لم يكتمل أو بالأحرى هل حقاً ما فهمناه عن الشك ينسجم مع مصطلح الشك – اذا ما نظر اليه من منظور إلهي؟ – أي هل تمكن العقل البشري – ليشك في الشيء لاثباته – المتقوقع في الجمجمة الفولاذية من فهم لمصطلح الشك ضمن معطيات الرب لهذا المصطلح، أعني ضمن معطيات الحق جل جلاله لهذا المصطلح؟ أم أننا حققنا جزءاً من الفهم، واعترفنا بكبرياء أن المفهوم البشري للشك هو نفسه الذي أراده الله لمصطلح الشك، أو بالأحرى ان مفهوم الشك البشري هو الجسم المناسب لعقل المصطلح الرباني، على اعتبار ان المصطلح "رباني" والمفهوم "بشري" ومن هذا المنطلق اخذنا ببلورة أفكار معينة حول الشك، ادعينا بأنها الأقرب الى المصطلح الرباني، خصوصا بعد أن زودنا الرب بالمعرفة أو أمرنا بأن نبحث عن هذه المعرفة، بعد ان منحنا ادوات ووسائل تمكننا من ذلك.

لكن رحلة الشك لا تنتهي عند هذا الحد، لعدم اقتصارها على الشك، بل لتعديها او تجاوزها الشك ذاته، الى الشك خارج ذاته، اي تواجده في الشيء على اطلاقه، فالشيء – سواء كان محسوساً ام ذهنياً – ينطوي على جانب من الشك الذي قد يقود الى فهم شبه حقيقي، إذا ما تعاملنا معه بمنطق سليم يعتمد على "العقل" و "الوحي" معاً، لكنه – أي الشيء – قد يقود الى السوداوية الفكرية المتزمتة.

فشيء – كالكرسي مثلاً – لا نستيطع ان نفهمه على حقيقته – لأننا بعد لسنا مؤهلين، أي في الوضع "الآني" – لكننا نستطيع بعد ان نجسد هذا الشيء (خصوصاً بعد حصولنا على المعرفة وادواتها) وان نفهم جزء منه، ونعترف خجولين نتيجة لضعفنا الانطولوجي – بأنه منسجم مع مصطلحه الرباني.

الكرسي إذن شيء، ولكي نفهم هذا الشيء جسدناه بواقع تعارفت عليه البشرية، وادعينا بأن فهمنا لهذا الشيء منسجم مع اصطلاحيته، لكن حقاً هل ما فهمناه عن الكرسي هو نفسه ما ينسجم مع ما اصطلحت على تسميته "الذات الإلهية" كرسي؟، او للتخفيف، هل الكرسي البشري على شاكلة كرسي العرش؟ وإذا كان كذلك ، فلماذا حملة العرش؟

إذن هناك لعنة تتلبسنا أثناء الفهم، تمنعنا من التوحد الكامل مع المصطلح الإلهي، لتبقى هناك علامة فارقة بين "البشري" و"الرباني"، بين "التعالي" "والقصور".

إنها لعنة الماضي والحاضر والمستقبل – أي الآن– إنها لعنة "الآن" التى تشبثت بعقولنا وجعلتها قاصرة عن الفهم الكلي، والتوحد بالتالي مع تساميات المصطلح ذو المعطيات الربانية.

إنها لعنة القصور الذهني لبني البشر، التي فهمت ربما لم تفهم – او بالأحرى التي عملت على تركيب المفهوم المرئى على المصطلح اللامرئي، في

سبيل الرفق بالعقل البشري من هيمنة المجرد، لأننا ماديون بالطبع – حسبما أفاد "برجسون" – نسعى الى التعامل مع الماديات، إذ نجسد الشيء المجرد الى محسوس، فنقول الشيء هو "كرسي" او "قدم" او "برتقالة"، لأننا لا نعلم ما هو الشيء كمجرد، لانطوائه على شيء آخر صعب المراس، هذا بالاضافة الى احتواء الشيء على شيء آخر هو "اللاشيء" وفي ذات اللاشيء شيء.

اذن رحلة البحث عن فهم حقيقي للمصطلح، تنطوي على مخاطرة كبيرة جداً، اذا ما تعاملنا مع الشيء كمجرد، لأن العقل البشري وهو في "وضعية الآنية" غير مؤهل للاتحاد مع "الفهم الكلي للإصطلاح الرباني"، انطلاقاً من مخاطر الرحلة تجاه المجردات التي يقودها العقل الذي يعانى من ضعف انطولوجي، وهو في وضعه "الآني"، تماماً كالرحلة التى تقوم بها المريضة التي تعانى من "الشيزوفيرينيا" – تجاه العصور الغابرة مع بعض التحفظات.

الفكرة والمكان

* الطرح العام

يجوز للانسان او بالأحرى للفرد ان يقــدّم تنازلات جســيمة يمليها عليه معتقده، او بتعبير اكثر دقــة"فكرته"، الى درجــة قــد يصل معه هذا التنازل الى الانتحار او الاستشهاد اذا اردنا تجميل التنازل وتزينه بل وتنزيهه كما حصل مع شهداء "الفكرةالشيوعية".

الشهادة – بادئ ذي بدء– من أجل "الفكرة " ليست حكراً على البلشفيين او الفرنسيين او الهنود الحمر، لكنها قاعدة تبنتها كل الأفكار سواء الربــانية منها او الوضعية، على اعتبــار ان "الفكرة "، قـــادرة على خلق المكان وتخليد الزمان وصناعة التاريخ.

ومن هذا المنطلق أخذت المجتمعات البشرية – بــوعى او بــدون وعي– بالالتجاء الى "الفكرة "، لتحــميها من "الفكرة" المضادة ومن أجل توظيب المكان لتخليد الزمان وصناعة التاريخ– وليكون لها هويتها التي تثبت وجودها وتحــافظ على كينونتها. فمواجهة الشــعب الفلســطينى–على سبــيل المثال – للمؤسســة العسكرية الصهيونية ليس من أجل شيء خلا المحافظة علىالهوية الفلســطينية التي تنتمي "للفكرة" العربــية الاســلامية. الفكرة الاشــمل التي توغلت – لقــوة منطقها– في العقل العربي – بشكل خاص– وتشبثت بمنطقــه حــتى غدت"فكرة" يدافع عنها في سبيل المحافظة على "الأنا" من اختراقات "الآخر ".

وما ينطبق على "الفكرة الاسلامية " ينطبق على كل "الفكر " اين كان منتجها وصانعها، فهناك "فكرة بــوذية" وفكرة كنفوشيوســية" وفكرة شــيوعية" وفكرة رأســمالية"، وغيرها من الأفكار التي تدافع عنها الشــعوب، وتدفع بشبابــــها وعساكرها للدفاع عنها وصونها من اختراقات "الآخر ". لأن "الفكرة" تعتبر جوهر

المجتمعات ومخها المفكر، وأي مجتمع عارٍ من "فكرته" - أي جوهــره- فهــو مجرد هلامات لا أسس تستنده ولا أركان ترفعه وتشكل له ذاته. ومن هنا نســتنتج بــان "الفكرة " هي الجوهر الذي يتمفصل عنه المظهر، فبــدون الجوهر يتبــدد المظهر ويتلاشى - ولا مكان له سوى المعتقل التاريخي لافتقــاده الى الأداة التي تصنع التاريخ، وتمكنه من ربـــــح ورق اليانصيب التي تؤهله لتطويع الزمان والمكان، والاستفادة منهما لتخليد "الفكرة".

*** الفكرة تصنع المكان**

إذا كانت"الفكرة" هي الجوهر، وإذا كانت قـــادرة أي الفكرة على اختراق الزمان، فانها بالضرورة قادرة على خلق المكان، والعكس ليس بالعكس. من منطلق الضعف المكاني وعجزه عن تشـــكيل الذات، لأن المكان من دون "الفكرة" يكون مشاعاً الكل يطأه، لكن "الفكرة"تخصصه وتحتكره وفي ذات الوقت تحرّمه، وتعتبــر كل محاولة لاختراقه وفض لبابه محاولة دنسة يجب ردعها وضربها بيد من حــديد، لكي لا تعاود الكرة مرة أخرى، ولتكون في ذات الوقت عبرة لكل من تسوّل له نفسه بالمحاولة الدنيئة. فالدفاع عن المكان الذي شــكلته "الفكرة"- دفاعاً مشــروعاً، لأنه ليس دفاعاً عن المكان بحد ذاته، إنما جوهر الدفاع يتمثل في الدفاع عن "الفكرة" التي شكلت المكان ووطدت أركانه. فدفاع الشعب الفلســطيني-على سبــيل المثال -عن المسجد الأقصى وعن القدس ليس من أجل المكان القائم عليه المسجد الأقصى، وإنما الدفاع سواء -بوعي أو بدون وعي - عن "الفكرة الاســلامية"، لأن إلغاء المســجد الأقــصى يعني إلغاء "الفكرة الاســـلامية" - صانعة المكان من القـــدس ونزع خصوصيتها وإقتراف مدنس بحق العالم الاسلامي الحارس "للفكرة الإسلامية"، أينما وجدت بغض النظر عن المكان الذي تتواجد فيه، ســواء في القــدس او بــغداد او الأندلس أو السعودية أو المغرب أو .. الخ.

"فالفكرة الإســلامية" على سبـــيل المثال تواجدت في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد الشام وبغداد ومصر والأندلس والهند .. الخ، وكانت قادرة على توحيد المكان، على عكس المكان الذي لا يستطيع توحيد "الفكرة"، لأن المكان قد يحــتوي أكثر من " فكرة "، ففي المكان الذي تواجدت فيه "الفكرة الشـــــيوعية" تواجدت فيه "الفكرة الرأسمالية"، بينما "الفكرة" تحــتكر المكان وتحــرمه على "الفكرة" الأخرى، فالمسجد الأقصى محرّم الا على "الفكرة الاسلامية" والكنيسة محرمة إلا على "الفكرة

المسيحية" ونهر السند محرم أيضاً إلا على الفكرة الهندوسية وهكذا دواليك، وفي هذا نضيف–الفكرة تصنع المكان–بأن الفرد يستطيع ان يحمل "فكرته" أينما ذهب، فالمعتنق للفكرة الإسلامية يستيطع أن يصلي ويصوم ويؤدي مناسك الدين في الصين ومكة والهند وباريس .. الخ.، لكنه لا يستيطع أن يحمل المكان أينما ذهب، فمعتنق "الفكرة المسيحية" ليس باستطاعته أن يحمل معه "كنيسة القيامة" أينما ذهب لتعذر ذلك ولتميّع الموقف.إذن الفكرة قادرة على خلق المكان وثقب حدوده، وفي ذات الوقت تبقى محافظة على كينونتها وتماسكها ووحدتها، وبناء على هذا يكون الانتماء "للفكرة" اكثر عمقاً، لأنه يعمق الولاء ويجعل الدفاع مشروعاً، كدفاع الفراعنة عن الفكرة الفرعونية المتألهةعندما لاحقوا سيدنا موسى عليه السلام للقضاء عليه. ودفاع الشعب الروسي عن "الفكرة الشيوعية عندما قامت الثورة البلشفية وراح ضحيتها خلائق كثيرة. وكذلك دفاع صلاح الدين الأيوبي عن الفكرة الإسلامية عندما قامت معركة حطين.باختصار، المكان عقيم و"الفكرة" قادرة على الانجاب، فالفكرة الفرعونية" أنجبت مكاناً سطّرعليه التاريخ الفرعوني، المتمخض ابتداء عن "الفكرة الفرعونية"، فما زلنا نزور أهرامات الفراعنة ليس احتراماً للمكان الذي تتواجد فيه، بل احتراماً "للفكرة الفرعونية" التي انجبت هذا الابداع، واتخذت من المكان دفتراً حجرياً سطرت عليه عبقريتها. بالاضافة الى هذا لكن فيما يتعلق "بالفكرة الاسلامية" فما زالت الشعوب الاسلامية تحترم الكعبة المشرفة وتزورها لأداء مناسك الحج، ليس لأنها موجودة هناك، بل لأن "الفكرة الاسلامية" متجسدة هناك وهناك يمكن ان نعلن الولاء لها، عن طريق التنسك والتعبّد، والانصراف عن الدنيا والاقبال على الآخرة، على اعتبار ان المكان وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في حد ذاته، مثلما الصلاة وسيلة لتحقيق الغاية المتمثلة بمصالحه مع "الذات" اولاً و"الآخر" ثانياً، والمصالحة بالتالي مع المجتمع ككل.

* التوحد مع الفكرة

اتفقنا على أن "الفكرة" قادرة على منح الهوية على المستوى المجتمعي، وما ينطبق على المجتمع ضرورة بل حتماً ينطبق على الفرد، ومن هذا المنطلق تكون "الفكرة" قادرة على منح الفرد هوية تصنع له شعاراً يميزه ويشكل ذاته، حتى تصبح "الفكرة" أنا وأنا "الفكرة"، فتغدو "الفكرة" مهيمنة على "الأنا" فكرياً وجسدياً ونفسياً. الى درجة اعلان "الأنا" لوجوده عن طريق "الفكرة". فالكوجيتو الديكارتي "أنا افكر إذن أنا موجود" بحاجة الى فبركة على الشكل التالي "انا اعتنق الفكرة إسلامية، شيوعية، بوذية... الخ) إذن أنا موجود" ليصبح أكثر جدوى. لأن الفرد يغدو اذا ما توحد توحداً كاملاً مع "الفكرة" عبداً لهذه "الفكرة"، يعبدها ويصلي لها. وهذا ما يمكن ان نلاحظه بشكل واضح من خلال المطارحات الفكرية التي تولدها الايدلوجيات على اختلافها، فهذا يريد ان ينتصر للفكرة الشيوعية وهذا للرأسمالية وهذا للبوذية، فكل قائم على فكرته، يدافع عنها نفسياً وفكرياً كما في المؤتمرات والمناظرات والحوارات والغزو الفكري وغيرها، ويمكن كذلك أن يدافع عنها جسدياً كما في الغزوات والحروب والثورات والانتفاضات وغير ذلك.

كما يمكن ان يدافع عن الفكرة بشكل فردي كما حصل مع الشهيد "سيد قطب" عندما أعلن تعامله مع الله عن طريق "الفكرة الاسلامية التي توحد معها فشكلته الفكرة، فصار هو "الفكرة" والفكرة" هو، وقد يتخذ الدفاع عن "الفكرة" – بعد التوحد معها – شكلاً مجتمعياً او بشرياً كما دافعت شعوب "الهنود الحمر" – حتى الموت – عن الفكرة الهندية، وكما يدافع – ايضاً – الشعب الفرنسي – على سبيل المثال لا الحصر – عن "الفكرة الفرنسية" من اختراقات العولمة او بالأحرى من "الفكرة الأمريكية" التي تسعى الى توطين نفسها على حساب "الفكرة" الأخرى.

وهكذا يكون "التوحد "مع "الفكرة" مثالاً بارزاً على التضحية والاستبسال ونكران الذات في سبيل الحفاظ على الفكرة ومنعاً لاندثارها وتميعها، حتى تبقى على الدوام محطاً للانظار، يتهافت عليها كل من يؤمن بمنطقيتها وشرعيتها، معلناً تذلله وعبوديته وولاءه لها ولشرعيتها.

***اشكالية الفكرة**

هناك مستويان من الوهن تتعرض لهما الفكرة، وهما اشكالية التنظير واشكالية التطبيق، أو بتعبير أكثر حصافة، تتعرض الفكرة الى إرهاصين، إرهاصاً نظرياً والآخر تطبيقيا، أما الإرهاص الأول فيتمثل بالقصور والضمور الذي تتعرض له "الفكرة" أثناء التنظير لها، فالمفكرون الذي ينظرون لفكرة ما - الوضعية على وجه الخصوص - ليسوا عفاريتاً جابوا الأرض (مشارقها ومغاربها) بعقولهم النافذة ليتمكنوا من معرفة طبائع البشر معرفة شاملة لا يأتيها الباطل لا من الداخل ولا من الخارج. فالفكرة الشيوعية ورغم كثرة المنظرين لها إلا انها ما زالت تعاني من اشكالية الشمول التجريدي، لتكون ناجحة بالتالي أثناء تجسيدها أو تطبيقها على الواقع. وهذا عائد الى طبيعة المنظرين، لأنهم من فئة البشر وليسوا من فئة العفاريت والخاصية الملازمة لبني البشر هي النقص وامتناع الكمال، حتى ولو بلغوا مبلغاً عظيماً في العلم والمعرفة, وهذا لا يقتصر فقط على المنظرين للفكرة الشيوعية، بل يشمل كل المنظرين "للفكرة الوضعية" وكل الذين سينظرون.هذا بالنسبة للإرهاص الأول، أما بالنسبة للإرهاص الثاني: إرهاص التطبيق او اشكالية التطبيق، فالفكرة تتعرض لانتهاك تعسفي من قبل مطبقيها، لأنها لا تطبق على الشاكلة الصحية. بتعبير آخر، يحدث تشرذماً بين التنظير للفكرة وتطبيق هذا التنظير، فالفكرة تكون طوباوية وهي في حالة التنظير، لكن هذه الطوباوية ما تلبث ان تفكك وتشظى أثناء التطبيق، فهذا "كارل ماركس" أحد المنظرين للفكرة الشيوعية يقول:" إن الدين هو أنين الكائن المضطهد، وقلب العالم عديم الرحمة، وحس الظروف القاسية، إنه افيون الشعوب". ولكن هل طبقت حقاً هذه التنظيرات؟ وهل لاقت آذاناً صاغية تصغي لها وتطبقها وتنشرها لتصبح عرفاً اجتماعياً وسمة ثقافية يلتزم بها كل من سيؤمن بالفكرة الشيوعية؟

*** الطرح الخاص**

الشـــهادة من أجل " الفكرة" تخلق فضاءات من الاستبســـال و الوفاء والاخلاص، وتمنح الشعب نفساً مقدساً، يخلده في الموسوعة التاريخية، ويبــرر له انزلاقاته وهفواته ولم من قبل التملق او تجنب الاستفزاز و النفور.

بينما الاستشهاد من أجل "المكان" يخلق مداراً ضيقاً يحشــر الأمة ويضيّق الخناق عليها، فيحصرها على هامش التاريخ، بل ينبذها ويقذف بــها خارج النص بكل مكوناته، لأن الشـــهادة من اجل المكان تكون وليدة التزمت و التعصب للمكان، وفكرة التزمت و التعصب مرفوضة انسانياً وعالمياً - بــغض النظر عن النوايا - لذلك فالمستشهدون من أجل المكان يعيشوا في أضرحة ضيقــة، لأنهم تعاملوا مع قوى الشر، التي دفعت بــهم الى الهاوية التاريخية، بــينما المستشــهدون من أجل "الفكرة" تبني لهم أَضرحة واسعة كالفضاء تحــفها الملائكة و الرياحــيين و الأيدي الطاهرة، لشجاعتهم و استبســالهم في الدفاع عن "فكرتهم"، و"المهاتما غاندي"مثالاً بارزاً على ذلك.

هذا من جانب النظر كأخيار الى المستشهدين من أجل "الفكرة" وكأشرار الى المستشهدين من أجل "المكان"، أما من الجانب الآخر - الجانب الوحدوي - فيمكن أن تكون "الشـــهادة أثناء الدفاع عن المكان من أجل الفكرة " شـــهادة لا تضاهيها شهادة، لأنها توحد بين الحس و الشعور، وتلفظ كل الانقسامات و الانشطارات خارج النص.

المفكرون وقضية التأله

* تقديم لبدايات التأله

نتيجة عجز العقل البشري عن تفكيك رموز "الماوراء"، وفي محاولة منه لإعلان ربوبيته على منطق الأشياء والتي تعتبر سابقة لا مثيل لها مقارنة بعالم الملائكة والشياطين – حاول العقل – ليس العقل ذاته "كمجرد" إنما العقل "كمحسوس" – على طول السلسلة الفكرية، ان يوجد لنفسه ثقباً يساعده في الإنتقال من المدرارات الحديدية للمرئي الى الفضاءات المثقوبة "للامرئي" او بتعبير آخر، ينقله او يساعده على الانتقال من "المتناهي" الى "اللامتناهي" ليثأر لضعفه الانطولوجي وليعلن أنه الأقدر على التعامل بمنطق العقلانية مع "الأنا" اي العقل ذاته – ومع "الآخر" الأشياء، وأنه في الوقت ذاته قادر على الاستبطان، وخلق المعجزات وتحديد الأولويات ورسم المخططات الايدلوجية التي تحدد مهام الإنسان في هذا الكون، وتوجد نموذجاً حياتياً لبني البشر.

هذا وعلى الرغم من إعلاننا إحراز العقل البشري للمرتبة الأولى في التأله هذا اذا تعاملنا بناء على الازليات والسرمديات وانعدام الزمان – الا ان الدلائل الواردة في متون الأيديولوجية – بمعناها المتعالي – الاسلامية تشير بأن الشيطان سبق العقل، –وهو مجسد– في قضية التأله، وظهر هذا جلياً في رفض الشيطان رفضاً باتاً لإرادة الله المتمثلة في السجود لأدم (واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين)، (البقرة:٣٤)

فكان هذا الرفض بمثابة تمرد شيطاني على إرادة الإله جل في علاه، وإعلان من الشيطان لأفضليته الربوبية، وانه قادر على استشعار هذه الأفضلية حتى بعيداً عن موجده.

وكان لهذا التأله الشيطاني تأثيره على الانسان الذي استجاب –متمثلاً في آدم – لاختراقات التأله الشيطانى فكان ما كان من خروج آدم من الجنة، ورحلة بني البشر والصراع بين الخير والشر. فوجدت جماعات من بنى البشر، تعلن ربوبية الشيطان، وتعتبره قوة ماردة، خارقة للمألوف، وقادرة على صنع الشر وإلحاقه بهم – ببني آدم– لذلك يجب ان تعلن العبودية للقوة الشيطانية لتجنب سخطها وابعاد حبائلها عن أعناق بنى البشر. ولهذا وجد بعض العابدين للقوة الشيطانية عرفوا "بعبدة الشيطان" يرون في الشيطان "قوى الشر"، وفي الله قوى الخير. ومن منطلق ان "قوى الخير" لا يمكن ان تضر بني البشر، لذلك يجب تجنب غضب قوى الشر عن طريق عبادتها واعلان ربوبيتها وطلب رضاها وتنفيذ اوامرها وتخصيصها بالعبادة من دون الواحد الأحد.

*** بدايات التأله**

العقل – بادئ ذي بدء– كمجرد او كمطلق هو محض تجريد لا اســاس له في الواقع، خلا ان العقل الذ ي تعارفت عليه البشرية هو "المخ البشري" بما يحويه من افكار تعينه على تدبير شؤون حياته وتوجيهها نحو الأفضل. الا ان الذي حدث او بالاحرى الذي أحدثه المفكرون – من أجل إعلان الحاكمية للعقل – هو التعامل مع العقل بمعناه المطلق، والتحدث بالتالي عن المجردات من منطلق ربانية العقل، كالتحدث عن "ذات الله" والخوض فى "كنه المجردات"، ومحاولة احاطتها بــعناية الرب – العقل ههنا–، في محاولة للتدليل على أن العقل قــادر على فض المتناهي والولوج بالتالي الى لباب "اللامتناهي" او بتعبير آخر، قادر على إحــكام قبــضته على "المجردات" علاوة على "المحسوسات".

لكن الحاصل او بالأحرى ما حصل وما قد يحــصل، هو أن العقــل ذاته بالمعنى المطلق – ليس هو المسؤول عن "فبركات" الحــديث عن "الذات الإلهية" وعن المجردات والمطلقات. إنما ما حــصل على وجه التحــديد هو تأله العقــل المجسّد في أدمغة المفكرين، الذين راحـــوا يخوضون معاركهم على جبـــهة المطلقات دون أن يكون لديهم العتاد الكافي أو بالأحرى العتاد الســليم الصحــيح للخروج بنتائج مشرفة تحقق تطوراً ايجابياً يساهم في دفع مسيرة الحياة البشــرية الى الامام. فكان ما كان من تمجيد المفكرين والفلاسفة لعقــولهم واعلان تمردها وتململها وخروجها من قمقم المتناهي وانتقالها بالتالي من مجرد مخلوقة الى خالقة قادرة على تربيب ذاتها.

فالمذهب العقلي – بحسب راي برنتون – يتجه الى نحو إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون.

ولأجل تنصيب العقل إلهاً على بني البشر، قاد بعض الفلاسفة والمفكرين

مهاترات دامية مع أفكارهم لإثبات حق العقل في الربوبية من دون غيره، فتعددت الآلهة في الزمن المطحون التي نصبتها – على هذه الشاكلة – عقول المفكرين، الذين راحوا يحيكون الأساطير وينسجون الخرافات الفارهة الخارقة. إلا أن هذه الآلهة لم تكن آلهة بحد ذاتها. بقدر ما كانت أفكار المفكرين هي المتألهة، لكنها اسقطت ألوهيتها على خرافات وأساطير ادعّت قوتها وجبروتها وقدرتها "اللامتناهية"، والمطلوب بالتالي هو التمسك والتعبد لإثبات ربوبيتها وألوهيتها.ثم كانت المحاولة الفرعونية في التأله، عندما أعلن "فرعون" ألوهيته، وطلب من الناس عبادته، وتقديم فروض الطاعة والانحطاط أمام موكبه الجليل، وعرشه المهيب.

(فقال أنا ربكم الأعلى) (النازعات:٢٤)

لقد كانت تجربة "فرعون" في التأله أول محاولة على وجه المعمورة تنتشر على نطاق بشري واسع، وتذكر في ذات الوقت بنص قرآني، نظراً لأهمية الحادثة، وكسابقة من نوعها. أعلن فيها المخلوق طغيانه على الخالق، وأراد ان يتقمص ذاتية الخالق، او بتعبير اخر، أراد المخلوق ان يتعامل بمنطق معكوس ومفبرك، ليحكم البشرية والكون بعقله لا بقانون خالقه.

وقبل محاولة "فرعون" في التأله، كانت هناك محاولة "النمرود" أيام إبراهيم عليه السلام في تنصيب نفسه ندا في الألوهية لإله إبراهيم، وتمثل ذلك في إعلانه أي النمرود عن قدرته على الإحياء والإماتة، كما يفعل إله إبراهيم لكن قضيته لم تأخذ بعداً عميقاً كما أخذته قضية فرعون وذلك لسببين: أولهما يتمثل في حصر قضية التأله النمرودي، – وقت حدوثها – في نطاق ضيق يتمثل في إبراهيم عليه السلام وزوجته والنمرود وربما بعض أعوانه، على عكس التأله الفرعوني الذي أعلن على الملأ وعمم على الجميع.

وثانيهما يتمثل في البهتان النمرودي الذي تجلى عندما طلب منه ابراهيم - عليه اسلام - ان يجعل الشمس تشرق من جهة المغرب. (ألم ترالى الذي حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا احيّ وأميت قال ابراهيم فإن الله ياتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) (البقرة: ٢٥٨)

وبعد هذا أخذت قضية التأله تتعطق انعطافاً ملحوظاً يكاد يتقـولب لها العقل البشري ويعلن تفشـيها واختراقـها لمعالمه، كتلك الافكار المتألهة - التي أنتجها عقل المفكر - وادعّت بقدرتها الخارقة على تخليد ذاتها، اذا ما خلدّها العقل "الآخر" - اي الأنا - وهذا ما حصل فعلاً بتأليه افكار "الآخر" - أي المفكر - فكان هناك التأليه للفكر الأفلاطوني والارسـطو طاليسـي، او بالأحـرى تأليه الفكر اليوناني على وجه الجملة, وان ألوهيته قـادرة على تفكيك الشـيفرات الكونية والنفسية والحياتية، لأن العقل الذي ابدعها عقل مدبر أله نفسـه بنفسـه - نتيجة لقدراته الخارقة، وبدا العقل "الآخر" بـتوكيد هذه الألوهية وإذعانه لها، وبـدأت الاجيال - أعني المفكرة منها - خصوصاً المتأثرون بالفكر اليوناني - تتناقل هذه السمات المتألهة، الى درجة أعلن معها البـعض، بـأن الفكر اليوناني كان فكراً متعالياً خرق الزمان وثقب حدود المكان، فاستطاع ان يضع فلسفة كونية فلسـفت الحياة وسبرت مضجعها، مما شكل رسماُ لمعالم الحياة البشـرية، وتأطيراً لذاتها. وربما مقولة "امرسون" "أفلاطون هو الفلسـفة والفلسـفة أفلاطون" مثالاً ديناميكاً على الوهية الفكر اليوناني، وإعلاناً لأزليته وقدسيته.

ثم أخذت الفكرة - فكرة تأله العقل - بـالتطور والازدهار الى ان جاء "دارون" - صاحب نظرية النشوء والإرتقـاء - وصرّح علانية ربوبـية افكاره

حيث قال "إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق"، فكان هذا تحــد واضح لقوة الحق جل جلاله، ورفضاً صارحاً لربوبيته، في سبيل رفع طبــيعته- القوة الخالقة عند "دارون" أو بالأحرى أفكاره الى مرتبة الرب القــادر المســيطر والمهيمن على نواميس الحياة والشاق لظلماتها والسائر بالبشــرية من الحــالات المنحدرة الى المراتب المتعالية، ولم يكن "دارون" هو لوحده المؤله لنفسه - سواء بوعي أو بدون وعي - بل كل الذين آمنوا بأفكاره - في غير مجالها العلمي هم في الحقيقـــــة مؤلهون لأفكار "دارون" ومعلنون لربوبــــيتها، وكان على رأس هذه المجموعة المؤمنة المفكر الخارق "كارل ماركس" حــــيث اخذ جوهر "النظرية الداروينية" وقال بألوهية المادة بدلاً من الطبيعة حــيث جعل من المادة خالقــه لكل شيء حتى الفكر- وهذه نقطة خلافه أو اختلافه مع هيجل - ففي هذا يقول " لا إله والكون مادة".. وبهذا يكون "ماركس" قــد أصبــح إلهاً بــفكرته الجديدة - ينظّر للبشرية ومستقبلها، بصفته عقلاً ثاقباً لـــ "الأنا" و"الهو" "والهي" و"الهنا" و"الهناك".

وقادراً في الوقت ذاته على تفكيك شيفرات الفكر البشـــري بـــصفته متمفصلاً عن مادته – والتنظير للبشرية بالتالي بعقيدة وضعية جوهرها "لا إله إلا ماركس" تعالى الله علواً كبيراً عن وثنيات العقـــل البشـــري إذا ما أعلن دغمائيته وتجسّد في وضع بربري، يشتاق ويحنّ على الدوام الى صبيـــانيته المطحـــونة التي كانت وما زالت تعاني من الشيزوفيرينيا (الانفصام).

هذا ويستمر "ماركس" برفضه لفكرة التأله الإلهي فيقول في كتابه (بـــؤس الفلسفة) إن العزة الإلهية والهدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ، والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئاً".

لا بد اذن من "الجدلية المادية" (للإله ماركس) – بالمعنى الدغمائي للكلمة – لتفسير التاريخ ومعرفة أسراره وثقب متونه "ففي الطبـــيعة لا يلعب الكون الدور الحاســـم رغم انه موجود، وإنما تلعب هذا الدور الحـــركة والتطور والتغير، هذه الحـــــركة ملازمة داخلياً للمادة كخاصة جذرية لا تنفصل عنها، ولا داعي لوضع السؤال التالي. من أين حصلت المادة على هذه الحـــركة؟ لأنها موجودة منذ الأزل، ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقـــول: من الذي أكســـب المادة الحـــركة، ما دامت لا تنفصل عنها، وتعتبر شكلاً من أشكال وجودها."*

ثم أخذت الفكرة الماركسية بالاستعار والتمرد الى درجة إعلان الملايين – وعلى رأسهم لينين مع بعض التحفظات – ربوبية "ثورة البـــروليتاريا" المتمفصلة عن الفكرة الماركسية وترجمة هذه الربوبية الى واقع جسد "بالثورة البلشفية" التي ما زالت عالقة في أذهان المتزمتين والمعقدين والممسكين بالمتعاليات من عرقوبـــها. ولم تلبث الماركسية او بالأحرى ألوهية ماركس ان اخترقت حصون عقل "الآخر"، ونشـــأت فلســـفات هي في جوهرها امتداد للفكر الماركســـي، كالبـــعث العربـــي الاشتراكي.

---

* قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط٨، ١٩٩٣، ص ٢٧٤

هذا ولم يكن "ماركس" لوحده هو المتأله، بل انجر الباطني "سيغموند فرويد" في متاهات التأله، وأعلن للعالم بلا خجل او تورّع بقدرته "اللامتناهية" على ابتكار أفكار جديدة يمكن ان تكون رباً جديداً يمارس تعالياته الفرويدية على بني البشـر، فقال فرويد من ضمن ما قال "إنه حدثت في البشرية الأولى حـادثة هائلة ما تزال تؤثر في حياة البشرية الى هذه اللحظة، ذلك ان الأولاد شعروا بالرغبة الجنسـية تجاه أمهم، فوجدوا أباهم حائلاً بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه وكانت تلك او جريمة ترتكب في البشرية الأولى ثم احسوا بالندم على قتل أبيهم فقدسـوا ذكراه فنشأت أول عبادة عرفتها البشرية وهي عبادة الأب، ثم وجدوا انهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضاً، فاتفقوا على ألا يقربها أحد منهم، فنشأ اول تحريم في العلاقات الجنسية وهو تحريم الأم، ويضيف بأن كل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذي لم يدع للبشرية منذ وقـوعه فرصة للراحة."*

وهو بتصوره هذا يبدو متأثراً بأفكار "دارون" حيث يقول – أي فرويد – إن "دارون" يقول: إنه في عالم البقر تتجه الثيران الشابة الى الأم لمواقـعتها، فتدور بينهم معركة رهيبة يفوز بها أقوى الثيران واصلبـهم عوداً، فيسـتولي على الأم ويندحر الباقون.

لقد كان "فرويد" بتصوراته هذه معلناً وبدون تحفظات لعبقريته المتألهة، فهو بتصوراته هذه يكون قد رفض المنطق الإلهي – أعني منطق الحـق جل جلاله – واراد ان يصطدم وجهاً لوجه بالقانون الإلهي أو ربما بقصد او بدون قصد – من خلال التسلح بقانونه الجديد. فأول جريمة قتل عرفها البشرية بحسـب القـانون الإلهي السليم هو مقتل "قابيل" لأخيه "هابيل".

---

* محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ١١٠

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك) .

المائدة: ٢٧) . أما حسب القانون الفرويدي، فقد كانت مقتل " الأب " من قبل أبنائه، ثم كان الاصطدام الثاني، فأول عبادة عرفتها البشرية حسبما اخبرنا القانون الإلهي- بمعطياته الراقية هي عبادة الله جل جلاله.

(وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .(طه: ١٢٢)

أما قانون الرب "فرويد" فقد بين ان عبادة "الأب" هي أول عبادة عرفتها البشرية ومارست طقوسها. ثم كان الاصطدام الثالث المتعلق بتحريم الأم، فقد حرّمت الأمهات على الأبناء بناءً على قانون إلهي متعالي. تقديراً و عرفاناً وتقنيناً.

(حرمت عليكم امهاتكم) (النساء: ٢٣)

أما قانون "فرويد" فقد حرم مواقعة الأم من قبل الأبناء حفاظاً على سلالة الأبناء، ومنعاً لانقراضها.* وعلاوة على ذلك ابتدعت الألوهية الفرويدية المقزمة نظرية جنسية بالغة الأهمية في رسم مستقبل البشرية، فأنت لست متحضراً او بتعبير أدق لست معلناً قداسة ربك "فرويد" إذا لم تطالب بتميّع العلاقة بين الجنسين، وفضّ قالب الدين والموروث الاجتماعي، الذي يحفظها ويمنعها من الخروج ويحصرها ويحاصرها في قمقمها المسدود بسدادة هتلرية او ستالينية. أنت لست من دعاة الحضارة الكوكبية، إذا لم تتبنَ الشعار الماركسي "الدين أفيون الشعوب" او شعار النظرية الجنسية لعالمنا المبجّل "سيغموند فرويد". إذا أمنت بهذا فأنت متحضرن - بالمعنى الإرهابي للكلمة - تباركك الآلهة الداروينية والماركسية والفرودية. واذا لم تؤمن فأنت - بدون مجادلة - اصولي وإرهابي ودكتاتوري. متمسك بالغيبيات في عصر العولمة والاقتصاد الحر وتدفق

---

* يمكن الاطلاع على كتاب " الانسان بين المادية والاسلام" وكذلك كتاب " مذاهب فكرية معاصرة" للمفكر محمد قطب

المعلومات، وعصر التحضير للانتقال الى حضارة كوكبية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة وربما الرابعة.

*** تقديم لنهايات التأله**

لقـــد تعاملنا مع ما سبـــق بـــالمنطق المفكك لاشـــكالية الزمان والرافض لسيطرات وهيمنات التسلسل الزمني في التعامل مع حدث التأله، فقـــد عمدنا الى خلع "بطاقة الزمان" عن الحدث، لأننا لا نناقـــش او نعرض للتسلســـل التاريخي (الزماني) لقضية التأله. بقدر ما نعرض لاشكاليات القضية التي شـــكلت منعطفاً حديدياً. كبل افكار العقل البشري ، وساقها الى زنزانات الإلحـــاد المدلهمة. والتي ساعدت على الانغلاقات في مناطق الوعي، وسببت بـــالتالي حـــنيناً الى عصر المراهقة العقلية، حيث السوداوية والدغمائية والضبابية.

هذا أو بالأحرى بالإضافة الى هذا، لم تكن قضية ربانية العقل في مصلحته أبداً – أي العقل – وكذلك في مصلحة البشـــرية التي آمنت لفترة خلت وما زالت بهذه الربانية التي فرضت ســـلطانها – المســـتمد من تفردها – فهيمنت على فكر "الآخر" وجعلته ينقاد الى قواها الخارقة، خصوصاً بعد انجازاته الرهيبة في العلم وادواته، وتوغله في النفس البشرية وسبـــر معتقـــلاتها، والتعرف عن كثب على أطلال الدماغ البشـــري ونظم النظيرات التي تفســـر ذاتيته، علاوة على اختصار المسافات ونسف الجغرافيات والتوغل خارج النص الأرضي والوصول بـــالتالي الى نظرية الانفجار الأعظم حيث قواه – أي قوى الانفجار الأعظم – شكلت معالم الكون ورسمت خرائطاً لنواميســـه، فلم يعد بالمقـــدور تجاوزها او التمرد عليها ليبقى الكون في حالة من الاتزان والثبات وعدم الانفلات والتشتت.

وعلاوة على هذا الثورات العلمية المختلفة، كثورة الاتصالات والكوانتم وثورة هندسة الجينات، وغيرها من الثورات التي أحدثت تغييراً جذرياً على حياة بني البشر.

*** نهايات التأله**

لم يكن التقدم الذي أحرزه العقل البشري في مجال العلم والمعرفة، محجماً او مقزماً لقدراته او إمكاناته، او سبباً يدفعنا لنوصمه بالخزي والعار نتيجة للثورات المعرفية والعلمية التي أحرزها. فكانت سبباً في الحفاظ على كينونته وصوناً لها من القلق والاندثار، بل على العكس فهذا التقدم يزيد من احترام عقل "الأنا" لعقل "الآخر" وعقل "الآخر" لعقل "الأنا". فهذه الزفرات العلمية – المتمخضة عن التامل الفكري العقلاني – التي تحاول فك الاشكاليات الابستمولوجية – وقد حاولت ووصلت الى نتائج مذهلة خصوصاً في القرن الاخير وبدايات هذا القرن – تجعله يقف – أي العقل – حائراً ساجداً أمام الاشكالات الانطولوجية. وتجعله يعترف في الوقت ذاته اعترافاً كاملاً، بأن الاشكالات الانطولوجية ليست من اختصاصه، وأنه ككائن مجسد – على شكل دماغ – لا قدرة له على الإلمام "بكنه المجردات". لان المجرد "أصل" والمجسد "فرع" و"الفرع" متمفصل عن "الأصل"، وشيء متمفصل عن ذاته بإمكانه أن يفهم جزءاً من شيئه وليس كل شيئه، وبالتالي فهو عاجز كل العجز عن الإلمام بذاته، وبالضرورة يكون العكس ليس بالعكس.

ومن هنا يمكن للعقل البشري أن يفهم الجزء المحسوس منه – أي العقل – بعض هذا الجزء وليس كل الجزء، لكنه في المقابل عاجز عن الإلمام بذاته، أي العقل كمجرد او متعالي. وبناء على هذا، تكون المعارف والعلوم من اختصاص الدماغ البشري (الجانب المحسوس من العقل). لهذا لا تعتبر الثورات والزفرات العقلانية في العلوم والمعارف تمرداً على المجردات لأنها تنطوي على جانب

ابستمولوجي محســوس. وهو اعتراف واضح بمحسوســيتها وعجزها بالتالي عن مجاراة المتعاليات.

فكان اعتراف "آينشتاين"- صاحب النظرية النسبية- بــعجز العقــل عن ادراك المتعاليات او المجردات- بمعناها المطلق- إعترافاً بزحزحــة اشــكالية التمرد على "الذات الإلهية"، وإعترافاً منه- في الوقت ذاته- بعجزه"اللامحــدود" عن فهم كنه بعض الأشياء حيث قال:"إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشــــعرها النفس عند الوقــــوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام. إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حــيّ كميّت، إنه خفاء لا تستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا ندرك أن وراءه شيئاً هو الحــكمة، أحــكم ما تكون، ونحــس أن وراءه شــيئاً من الجمال، اجمل ما يكون, وهي حــكمة، وهو جمال، لا تستطيع ان تدركها العقول. عقولنا القاصرة إلا في صور بــدائية أولية، وهذا الادراك للحكمة وهذا الإحساس بــالجمال في روعة،هو جوهر التعبــد عند الخلائق."*

وعلى الرغم من ان النظرية النسبية لــ "آينشتاين" كانت بمثابة ثورة على الفيزياء الكلاسيكية. احدثت نقــلة هائلة في علم الفيزياء خاصة والعلوم الأخرى عامة، ونقلته من أحضان التراث الى فضاءات مثقوبة، وعلى الرغم من هذا، الا أن إعتراف آينشتاين – سالف الذكر – يمثل إعترافاً من كل المشتغلين على جبهة العبقرية، بأنهم عاجزون كل العجز عن الإلمام بكثير من الأمور التي تنطوي على جانب انطولوجي عميق، او جانب تجريدي – بــالمعنى المتعالي للتجريد – لأن هذه المجردات لا قدرة للعقل على بلورتها وفك غموضها، وتجسيدها بالتالي الى

---

*محمود سامي أمين، التناقض في آراء المفكرين، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد٤٧

أدلة مادية، تكون حجة قوية تجعلنا نعترف بألوهية العقل، وفي المقابل الإلحاد بعالم الشهادة الكبير المتعالي.

فلم تكن تلك الحقول الفكرية- التى تنطوي على جانب انطولوجي- التي عمل عليها المفكرون، ليثبتوا براعتهم "اللامتناهية" في إحقاق الحق وسبر غوره، إلا حقولاً أشبه ما تكون بالسراب، لأن الوسيلة المستخدمة- العقل ههنا- لفهم هذه الحقول- حقول المتعاليات - وسيلة"غير معقولة " تريد حمل المعقول(حصن المتعالي) على حملها- اي اللامعقول- لتجعل من "اللامعقول " معقولاً.

وهذا مرفوض ومنبوذ أيضاً، لأنه يمنح العقل البشري"بطاقة إله"، بصفته قادراً على تجسيد المتعاليات ليفهمها عقل "الآخر" وليسهل عليه بأن لا يفكر"فيما وراء الطبيعة" لأنه - أي عقول المفكرين جسّدها اي المجرادات على شكل محسوسات وماديات يسهل التعامل معها. فجسّد الروح بالنفَس، وجسّد- أيضاً- الكون"اللامتناهي" بنظرية الإنفجار الأعظم، وراح يخطط لمستقبل الكون، وفقاً لمعطيات علمية بحته. او بلغة أكثر دقة، راح يحمل المعطيات الانطولوجية على محمل ابستمولوجي، ليسهل على نفسه- اي العقل- عناء الانخراط في "الماوراء" المستنزف للعقل والطاحن لمعالمه.

وفي هذا اعتراف من العقل ذاته- بطريقة غير مباشرة- بأنه فعلاً ليس إلهاً، وليس قادراً على سبرغور المتعاليات وعاجزاً- في الوقت ذاته- عن فهم الجوهر، وتذهين كنهه.

ومن هذا الاعتراف نستدل او بالأحرى نصل الى المنطق العقلاني - بالمعنى المتحضر للجملة- القائل بضرورة بل بحتمية تنحيه العقل عن التأليه، لأن هناك قوة لا متناهية هي الأجدر بالتأليه لقدرتها المطلقة على التحكم بكل شيء. الشيء ذاته وكنه ذات الشي، حتى الكنه ذاته.

وتستمر مسيرة الاستدلال على محدودية العقل وتناهيه حتى لو أتى شخص كـ"جوليان هكسلي" وقال: "إن الانسان قد خضع لله بسبـــب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقــيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله."

لأن مقولته تعانـي من نظرة بدائية صبيانية الى منطق الأشياء لمحدوديتها وتشتتها ووقوعها في "فخ المصطلح". فما أدرانا ان مفاهيمنا عن البيئة هي الجسم السليم لعقــل المصطلح الســليم، اذا تعاملنا مع مصطلح البــيئة من منظور إلهي متعالي.

* **الالحاد بربوبية العقل**

ان العقل من حيث هو ليس هو، لأن صبغاته الانطولوجيه مجرد تهيؤات اختزلها المفكرون"بالدماغ البشري". لذلك فاعلان انكار وجودية العقل -كمجرد- او اعلان وجوديته ليست من اختصاصنا، لأننا لا نملك عصاً سحرية او مارداً نخرجه من قمقمه، يساعدنا في الانتقال من حقل العموميات الى حقل الاختصاص الدقيق الذي يمكننا من فهم العقل كمعطى راق يتعالىفوق مفاهيمنا وتصوراتنا المحاصرة في جماجمنا.

اذن الانكار او الالحاد ليس للعقل كمجرد، بل للدماغ البشري او بالاحرى لأفكار المفكرين المتمفصلة عن ادمغتهم. بلغة اخرى، الانكار ليس لوجودية الدماغ، بل ان الامر متعلق بنبذ الفكرة المتألهة والسخرية منها، لأنها واقعة تحت وطأة الجمجمة المفلذنة.

ومن هذا ينكشف لنا، بان الحصار الجمجمي للفكر يكشف لنا عن عجز العقل- كمجسد- عن تحرير ذاته من معاقل حصاره، والنظر له بالتالي كمتقوقع متناهي ومحدود، غير قادر على مجاراة المتعاليات التي لا تصله افكاره لانها محاصرة. وحتى وان حاول الوصول اليها العقل- بالمعنى المتعارف عليه- فانه يصاب بحالة من التشرذم الوجودي، لأن كل مفكر يتحدث على هواه، ويفسر كما يحلو له. فهذا يقول"كذا" وذاك يطعن في"كذا" وينشئ كذا مغايرة، هي بالتالي لا تعجب "الأنا" فانشئ "كذا" جديدة، و "الاخر" هو بالتالي لا تعجبه "الكذا" الجديدة، فيعمل على انشاء "كذا" جديدة اكثر تمرداً وعنفواناً وشباباً، وهكذا دواليك تبقى العملية كمن يطحن في الماء أو يطارد عفريتاً.

اذن الفكرة -خصوصاً التي تعمل على الجبهة الانطولوجية- فكرة

ضعيفة، وفي نفس الوقت ناقــصة، أعلن نقــصها الفكر ذاته: فكر "الأنا" وفكر "الآخر". وشيء ضعيف وناقص لا يصلح ان يكون إلهاً يمارس ربوبــيته، لتعلن له فروض الطاعة ومراسم التقديس.

لا بد إذن من إله واحد أحد كامل قوي كاشف ثاقــب، مهيمن يعلم خافيات الأعين، يتجلى فوق الزمان والمكان، إله ســرمدي أزلي، عليم خبـــير، يتفرد بألوهيته وربوبيته لا يجاريه أحد لا في السماوات ولا في الارض تتحشرج لرهبته وجلالته الارواح، وتصعق الاجساد وتتصهر الجبال، ويتقوقع العقل ويتكوم داخل جمجمته. إله تستشعر عظمته استشعار، تهتز لها النفس وتحار لها الألباب.

لا بد اذن – مرة اخرى– من إله نعلن له عبوديتنا وتذللنا، لأنه يعلمنا ونحن لا نعلمه، وهو يجسدنا ونحن نستشعر عظمته عن طريق مخلوقاته، لا بــد لنا من إله صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحـــد، ليس كمثله شـــيء. نتذلل له صاغرين مكبرين معلنين عجزنا وضعفنا ونقصنا وتقوقعنا، وموحدين له، يتجلى ونحن نتصغر، يتعالى ونحن نتذلل.

لم يكن بد من العودة الى المقــدمة ليس لرأب صدع او تجســير هوة، او لنعالج- علاجاً علاجياً- مرضا أصاب جســم المقــدمة، ولم تكن عودتنا أيضا، كعودة"المنفي" الذي فتحت له أبواب الوطن، بعد التدخل السياسي.

بل جاءت العودة من اجل التذكير مما لا بــد منه، والمتمثل في أننا ما زلنا نرضخ لقوى"الآني" الذي فرض منطقة الجسور على تأملاتنا، لهذا جاءت- أعني التأملات الآنية- بالقطع تمهيدا لتأملاتنا التالية التي لم يكتب لها بــعد الخروج من رحم المؤلف، لأنها ما زالت مرتبطة بحبل سري توجه خطاه(القوة السرمدية)التي فرضت منطقها السليم على عقل المؤلف.

بتعبير آخر، لم تكن عودتنا لشــيء خلا لفت الانتبــاه بــأننا بــعد لم نلج الى"التالي" ولم نتوغل في جغرافياته، إنما كان ما اشــارت إليه المقــدمة كتقــديم للاحــق أو بالأحــرى وكأن ما كتب لغاية الآن يعتبــر بمثابــة مقــدمة"للوضع التالي"خضعت-خشية من الانفلات- لقانون صارم لكنه آمن، وفّر عليها كثير من الزندقات الهدامة التي كان من الممكن ان تنحرف عن جادة الطريق المستقيم. لهذا تجردنا في مرحــلة الطفولة من جاهليتنا ووثنيتنا وتسربــلنا بقانون(القـــوة السرمدية)التي ستكون مستقبــلا-الغطاء المناســب-الذي تتماهى فيه عبــاءته تأملاتنا التالية.

بعد هذا الإيضاح، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشــكر الى الأخ "عصام" الذي كان – على الدوام – يمنحني تأشيرة دخول الى ذاكرته.



المحتوى

رقم الصفحة